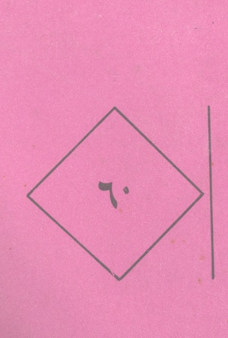
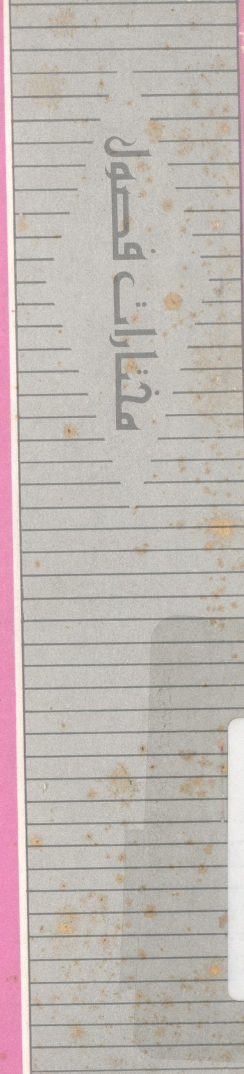
نورسان أبيضان

نعيم عطية





مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٦٠)

يناير ١٩٨٩

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
تصدر عن
الهيئة المصرية
العامة للكتاب

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

نورسان أبيضان

قصص

د . نعيم عطية

إهــــــداء

الى

عبد الفتاح الجمل

تحية تقدير لربان من الصعب أن يتكرر

ن . ع .

نورسان أبيضان
يسبحان
ويتبادلان بمنقاريهما القبل

مازال الظلام دامسا ، ولا شعاع نور يتسلل من خصاص النافذة . أنفاس حبيبة فى هذه الغرفة تمسح وجنتيه وجبينه . أكانت قبلاتها ، تطبعها شفتاها ؟ ولكن الم تخرج من حياته منذ عهد يبدو الآن بعيدا ؟ أحقا ثمة ما يخرج ؟ الا تستقر كل الأشياء فى الأعماق قابعة تنتظر مجرد اهتياجه ؟ انه الحلم الذى يأتى اليه كلما أحس الى تلك الأشياء حنينا . حاول جاهدا فى الأيام الخوالى أن يحتفظ بها ، تجاهل كبرياءه مرارا ، وآمل أن يظفر بها . كان لا يأبه بالعراقيل التى تضعها – أو على الأصح التى تدفع الى وضعها – فى طريق اتحادهما . كان على الدوام يثق فى أن على الشطآن الساجية تنسى دوامات الأغوار الموحشة ، وان صار من الآخرين لا ينتظر سوى أمواج تصفع ، تغرق ، تنحسر ، ثم تعود لتصفع . يعرف الآن ان السعادة ليست جيشانا أو رعدة ، بل هدوء بال ورضاء بالمقسوم وقناعة ، جزيرة تنتظر قاربا ، ان آتى فسوف يرسو مليا ، ثم يضرب مجدافاه لجة الماء مبتعدا ، عائدا من حيث آتى .

آنذاك راح يتناسى نصيحة أمه . «خذ امرأة من ثوبك» . ويجزع اذ يخطر بباله انه لن يحصل عليها . يأرق . ينهض فى الصباح مشدود الأعصاب ، وطوال النهـار يتـوتر . أبوها أسـتاذ له بالكليـة . يدهش كيف يضحى الكبار عندما يهرمون فى يد الصغار لعبـة . أحقا كان ذلك حبا ، أم شهوة استحواذ ، وعشق تملك؟ أكان وهو المعيد ضئيل القدر يطمع بدوره أن يصبح مثل أستاذه سليم ثابت رئيس قسم ، فعميدا ، فوزيرا ، وينعم عليه بالألقاب الرسمية ؟ تتعلم يوما بعد يوم أن تزهد ، حتى تزهد فى النهاية العالم كله ، ولكن تبقى رغم كل شيء تحت الرماد الجمرة التى احترقت . نسى الآن ــ وكان يجب أن ينسى ــ الاهانات التى لقيها من منير وأمير ، من أذنيه ، ومن قلبه خبث التهديدات التى وجهاها اليه لو لم يقطع كل صلة باختهما . يوم اعترفت له بحبها ، لن ينساه : سوف يراها على الدوام ممسكة بين يديهـا باناء بللورى كروى : قالت له مرتعبـة « أسماكى الملونة اختنقت » أشار اليها ناحيـة البحر وقال « الدرافيل مخلوقات وديعة . لن تزيد بك ضررا» خرج من بيتها . سار على الكورنيش طويلا . كان على موعد فى محطة الرمل مع بعض الرفاق . عندما وصل

الى السلسلة قفز على السور الحجرى العريض ۰ ومضى يسير بمحاذاة الميناء الشرقية ۰ كانت هبات الريح الخفيفة تهمس فى أذنيه بأمنيات ۰ وعلى المياه الداكنة الزرقة مضت الأشرعة البيضاء تردد النغمات التى كانت شهيرة تعزفها ۰ رفعت عينيها اليه وابتسمت ۰ أضاءت عيناها بشمس سكندرية صحوة وقالت له « أنتظر ذلك اليوم ، مثلك » ۰ عندما قابل الرفاق الجهمين لم يفهموا لماذا كان بادى الحبور ۰ « هل طرأ على مخططنا تغيير ؟ » ثم جاءت أحداث المنشية ، فانتزع من دفء فراشه فى الفجر ۰ لازالت عشرات السراطين البحرية تزحف على جلده ۰

بعد ثلاث سنوات انفتح الكهف الحديدى الثقيل الصدىء ، وقذف به الى الضوء من جديد ۰ كان الوقت ظهرا ، والشمس حارقة الوهج ۰ لم يستطع أن يفتح عينيه تماما ۰ بدا له النهار مختلفا ، كل شىء صار مختلفا ۰ ماتت أمه ، وماتت أيضا أشياء أخرى ۰ فقد وظيفته ۰ سأل عن شهيرة ۰ فقدها هى الأخرى ۰ كانت أضعف من أن تقاوم ، فأذعنت لمشيئة غيرها ۰ تقدم اليها دبلوماسى شاب ۰ أسرعت الأسرة فى اتمام الاجراءات الرسمية ۰ من أين لها الصلابة وهى لا تعصى

لأخويهـا أمرا ؟ وماذا كانت تســتطيع أن تفعـل ؟ يحاصرانها ويضيقان الخناق عليها ، لم يكونا خارجها فحسب بل داخلها أيضا ، ملتصقان بأنفاسها وخلجاتها، ومتحكمان فى أخص شئون حياتها · ماذا كان بوسعها اذن أن تفعل ؟ تنتحر أم تهرب ؟ والى أين تذهب ، هذه المدللة التى لم تتخذ قرارا ايجابيا يـوما ؟ فى بعض الأحيان ، يقول « كانت نعمة أن يساق الى كوة السراطين السوداء ، وهى ليست على ذمته » · كان ذلك سـيجعل ألمه مضاعفا · يسهل على الرجل أن يشرب الكأس التى تعطى له وحده ، ويشق عليه اذ يجرعها معـه غيره · أحدثت به جرحا غائرا ، لكنه شفى منه الآن ــ أشـفى حقا ؟ ــ ولم يحدث ذلك بين يوم وليلة · خفف من بلواها عليه ان أخاه نفسه طلب منه توكيلا وهو فى السجن · وعندما خرج وجده قد باع نصف البيت ، وبدد نصيبه فى الميراث · اذا كان الذى هو من دمه يفعل به ذلك ، فليس بمستغرب اذن في هذا العالم الكئيب الغريب أن تتزوج البنت الصغيرة المرفهة بآخر · هنـاك ، وراء القضبان عرف نوعا آخر من الانسان ، يأمل من اخوانه البشر فهما أكثر ، كانت حميدة تأتى أيام الزيارات ، وتقف وراء حائط السلك ، تحـادث مسـعودا ، فى

الزنزانة أراه صورة لهما . آخرجها من صدره خلسة . لاحظ وضع يد الرجل رغم خشونتها على كتف الشريكة الحبيبة . كانا يقفان متجاورين ، وكأنهما شط وبحر . قال له ذات مرة في الفناء قبل العودة الى الزنازين « ماذا تعتقد ؟ ان المرآة الوفية تعاضد الرجل ، وتقف بجانبه ، تبث فيه القوة والصبر ، فهى لا تطلب الحياة الرغدة والفراش الوثير والثياب الناعمة ، بل هناك الحياة بكل خشونتها وفظاظتها وضراوتها تحيط بهما ، ومع ذلك فهما متحدان كصخرة فى وجه العاصفة » التفت اليه بعد هنيهة ، وقال « العدو قد نال منا . أغرى نساءنا بالرفاهية . لو آحس الرجل ان من وراءه ليس طحلبا رخوا ، لانطلق فى وجه العدو اعصارا » أغمض مسعود عينيه ، وتمتم مبتسما « متى تصبح الحياة عالما نقيا رطيبا مثل اسكندريتنا الأولى » .

امتد الشاطىء الرملى آمام ناظريه ناصع البياض فسيحا خاويا أملس ، يصغى فى هدوء الظهيرة الى همسات الموج ، رتيبة بطيئة ، مترقرقة في بحر ساج أزرق . يجب كى تستريح آن تتلمس الأعذار للناس . لم يرفع على أخيه دعوى . تشاتما فحسب ، وارتضى الهزيمة . المرارة ؟ طعم نسيته شفتاه ، ولفظه كيانه .

صار الآن لا يكترث بوجود شهيرة ، وما عاد يؤرقه غيابها عن أيامه المشحونة بالمسئوليات والانشغالات · بقليل من العزيمة ، انت تقطع علاقتك بهذا العالم ، تدافع عن نفسك · ليس العالم بالنسبة اليك سوى علاقة · الخ هذه العلاقة لا يكون للعالم ـ ومن ثم للألم ـ وجود · ولكنها كانت تتسلل الى نومه ، تتسرب الى آحلامه ـ وآنى له ان يرفض ذلك أو يقاومه ؟ تطل عليه بعينيها الواسعتين ، ونظرتها المعذبة ، وقامتها السامقة النحيلة · لم يكن أحد غيره يرى جمالها · كان يعتبره فريدا ، بللوريا رائقا · حتى بعد أن فقدها ظل متعلقا ـ لكن فى اتزان وقناعة ـ بطيفها ·

بدأ النور الفيروزى الباهت الآن يتسلل الى الغرفة · كان يسميها « عروس القمر » وكانت فى ثيابها الحريرية ذات الألوان الفاتحة ـ وما كانت تحب الألوان الداكنة ـ تبدو فعلا كضياء القمر ، الذى كان يحلو لهما أن يتابعاه يصعد قبة السماء ، ويطل حزينا من عليائه الى دنيا البشر · وقد كان للبدر فى ليالى الاسكندرية تلك ، وقع خاص ، والليلة كان القمر بدرا · رآه قبل أن يدخل ، ويغلق الشرفة ·

وجاءت اليه قبيل الفجر فى غرفته . تضىء ظلمته . تقدمت منه بخطى بطيئة . يسبقها أريج خفيف . أريج طحالب البحر التى تغسلها الأمواج صباح مساء . جلست الى جواره على الأريكة ذات المساند الزرقاء . أمسكت بيديه فى راحتيها . ضغطت عليهما وتشبثت أصابعها بهما .

سألها بصوت وافد من كهوف العمر الخوالى :

ــ ألازلت تأتين ؟

نكست رأسها . انسدلت غدائرها الشقراء على كتفيها ، ولم يكن لغير جدائلها من كيانها وجود ، فقد اندمج بظلمة الليل سائر جسمها .

سأله الصوت :

ــ ألازلت تنتظرنى ؟

أشاح بوجهه ، وتشاغل بالنظر من الشباك الى البحر ، تومض فى رحابته المظلمة بين الفينة والفينة أنوار من سفين فى الأغوار بعيد . كز على أسنانه حتى يكتم لواعج ألمه ، ويكبت فى صدره تنهيدة حنين .

سأله الصوت :

ـ أمازلت تفكر فى ؟

أجاب :

ـ كلا ، ليس بالضبط فيك ٠

رفعت اليه نظرتها المعذبة :

ـ أعرف ٠ لست بالنسبة لك سوى ذكرى ٠

نهض يحكم اغلاق الشباك ٠ ما عادت عظامه تحتمل برودة الليل فى أخرياته ٠

ـ أجل ، ذكرى من أيام بعيدة ٠٠

تقف وراءه ٠ تحيط منكبيه بذراعيها مثل طحلب متسلق ، وتسند خدها على كتفيه ٠٠

ـ ألم تفكر يوما أن نعيش معا ؟

موج البحر يغمر الغرفة ، وهديره يبدد صوتها ٠ يصفعه بصخرة عاتية ، فتنكسر فى أذنيـه كلماتهـا كهسيس رذاذ متطاير ٠

« ألم تفكر يوما ؟ »

صعدت الى حلقه غصة · انتابته رغبــة ملحة أن يسأل · لم تنجب· ربما احتجاجا من جسدها على الزواج القسرى · استدار نحوها · وجدها فى الطرف القصى من الأريكة منكمشة · مدت اليه ذراعها· كادت أصابعها تلمس وجهه ، حجبت عنه هيأتها ·

ــ لا تسأل · كفاك تعذيبا لى ولنفسك ·

ــ ولكن ··

ابتدرته :

ــ كان الأمر كله خطأ ··

انحسر البحر عن الغرفة · ظلت أرضيتها مغطاة برمال صفراء لامعة · وتناثرت فى أرجائها طحــالب بنية وخضراء ·

ــ فقط ، وددت أن أعرف ··

ــ الأوراق كلها على مكتبك ·· ألم تقرأها ؟

نهضت ، دست قدميها الحافيتين فى محــارتين · وقفت · تمطت · ثم جالت فى الغرفة ·

على الدوام ثمة يد خفية تكبله ، وتحول بينه وبين أن ينالها . لكنه ما عاد بقـادر أن يستسلم للأغلال . سوف ينالها الليلة . هل تراه فراقهما الثانى والأخير ؟ يعرف ان فى هذا خرابه . الصوت العجوز بداخله يقول « ما دمت قد جرعت الكأس حتى الثمالة ، لملم أشلاءك ، وامض بلا رغبة ، بلا أمل . فالرغبة على الدوام اخفاق، والأمل فى النهاية عذاب » .

بسطت شباكها ، ورتقت ما تمزق فى نسيجها من خيوط .

ــ مفيد لم يحبنى قط . ولا أنا أحببته . بثروته اعتقد انه سيشترينى ويروضنى . كان مغرورا منشغلا عنى ، أما أنا فكنت هنا ، دائما هنا .

مضت الى المكتبة، وأخرجت ديوانا، وأخذت تقرأ.

قال لنفسه :

ــ ما كنت أعرف ان شهيرة تهوى الشعر .

أجابه الصوت :

ــ بل انت الذى تهواه . ألا تعرف صوت من هذا ؟
قال لنفسه :

ـ انه صوت الأحلام ·

قال الصوت :

ـ أتذكر عندما دعوتنى الى المسرح · كانت المرة الأولى والأخيرة ·

ابتسم ·

ـ تذكرتان مجانيتان أعطاهما لى صديق ثرى ·

ـ لا يهم · المهم انك دعوتنى ، وخرجنا معا تلك الليلة · سمح لنا أبى بذلك، بعد أن أخذ عليك الصارم من التعهدات ، وكنت قد عينت حديثا فى القسم الذى يرأسه · لا تنكر ، كان يحبك ·

هز رأسه مصدقا ·

ـ ذهبنا وشاهدنا « باليه الأميرة النائمة » ·

ـ بهرنى المدلول العاطفى للقبلة التى أيقظت الأميرة ، فحدثتنى عن مدلول أعمق للقبلة ، المدلول الاجتماعى للقبلة التى توقظ ، عن الحب الذى يعيد الى الحياة · وحدثتنى أيضا ونحن سائران جنبا الى جنب ، عائدان الى بيتى عن مئات القبل الأخرى التى تقتل ، وعن الصياد الذى يقف فى قاربه حائرا بين

الجنية القابعة تحت الماء تناديه ، وزوجته وأولاده فى الكوخ ينتظرونه ٠

نداء بعيد ٠ من أين يفد ؟ أغنية حب حزينـة ، ولوعة فراق قديم متصـل ٠ وجـوه حبيبـة من وراء الضباب تبزغ ، تترنح ، وتمضى غائصـة ٠ خيـالات معتمة تنمو فى أغوار سحيقة تكسرت فيها الأشكال ، وفقدت نظاميتها العادية ، وان شـحنت بمنطق خاص بها ٠ وامرأة من البحر تأتى ، تسير على الرمال الهوينا، تجلس تتطلع الى الموج ٠ على جنبها تنقلب ، ثم اليـه تنظر ، تبتسم ، وبصوت لا صوت له تقـول : « هـل جئت ؟ » فى كل الأحيان امرأة واحدة ، شابة أحيانا ، وعجوز أحيانا ، ولكنها على الدوام شهيرة ٠ أهى التى تشتاق اليه فتأتى ، أم هو دائب الشوق اليها فيناديها ؟ زخر الحيز بالأسماك وبكل نوارس الفضـاء ٠ عالم ساكن مغلف بجو رائق صاف متقد ٠ كل شىء فيه معزول متداخل شديد الشفافية والاعتام معا ٠

ركع ، وراح يصلح قاربا ٠ استغرق فى عمله ، لم يكن بالامكان أن يخذلها جاءت بعد كل هذه السـنين الى مكتبه تستنجد به ٠ كان أبوها يقول وهو يدرس لهم

« آداب المرافعة » : «اذا جاءك عدوك يطلب منك الدفاع عنه ، لا ترده خائبا » ·

انحنت ، وسألته :

ــ ماذا قررت بشأنى وشأنك ؟

لم يجب ·

ــ ألم تفكر يوما أن تقترن بى ؟

نهض ببطء · وانتصبت هامته كشراع بالريح امتلأ ·

غمر الآن البحر الغرفة كلها ، ولكن الثريا لازالت تتدلى مضيئة · من أين يأتى هذا الدفق الصامت ؟ أصبح الحيز كله رحما مائيا يحتويه · السقف من فوقه قبة لا زوردية · من أين جاءت كل هذه الأسماك الفوسفورية ؟ الجرم المائى حوله محكم الاغلاق · الموج شاهق من فوقه ، يكاد يحطم صدره ، وهو راقد على ظهره · اضطرب قاربه · ضرب بمجدافه اللجة · انساب القارب مخترقا الغرفة · البساط الأزرق من تحته التف حوله ، وصار يطويه · تشبثت شهيرة بحافة القارب · آمه تهمس اليه بصوتها الحنون · « لا تفتح

عينيك . انت في حضني تنام . انت في رحمي ترقد . من هذا الماء السيال أرضعتك . هـذا الجسم الهلامي الرجراج جسمي . لست عظاما ملقاة في قبر . انهـا أنفاسي التي تلمس جفنيك وجبينك . لن أترك غيري يمسك . نم ناعم البال . يابني . هذا المجداف الذي بين يديك هو عظمة من ساق أبيك . أتذكر كم ظللت وفية له ، طيعة وأبية ، ؟ انت مني . لا تلتفت وراءك . لا تلق بالا الى أي استغاثة ، وهل ألقى اليك أحد بالا عندما استغثت ؟ » .

أسراب السراطين تنساب ، وتفلت من شقوق في الجيز غير مرئية ، وعروس القمر معها . جرى المـاء لجبا معتما ، هادرا ، مكتسحا آلاف المخلوقات البحرية . تفتح أفواههـا في صمت ، بينما تدور في محـاجرها عيونها مذعورة . أحس انه بفقـدها يتردى في بئر لا قرار له . تمنى ألا يكون لها في خياله قائمة . قضى الأمر . دبر ، وأمل ، واشتاق كثيرا ، وهوى كل شيء على صخرة العناد وتحطم . لم يأت أي سعي بنتيجة .

تحشرج الصوت وقال :

ــ أنت ترحل ؟ للمرة الثانية ترحل ، اذن .

تشبثت بيديه · لمعت دمعة فى عينيها ·

ـ أخشى أن تضيع منى مرة أخرى ·

سحب يديه من راحتيها الباردتين بهدوء · رفع الخطاف ، والى الباب انساب قاربه بلا جلبة · عروس القمر فى الأعماق . أسفل القارب · تدعوه أن ينضم اليها ، وفى سماواتها الزرقاء البنفسجية يلحق بها ·

ظلت نظراته المنهكة تحدق مليا ـ وآثار النعاس عالقة بها ـ فى الأريكة الخالية ، وشبح المكتبة المفتوحة، وديوان الشعر الملقى · ثم نهض فى تثاقـل · ارتدى الروب · فتح باب الشرفة المطلة على البحر · عاليا فى أديم السماء نورسان ناصعـا البيـاض · يسبحـان ويتبادلان بمنقاريهما القبل ·

جرجر خفيـه الى المطبخ يعد لنفسـه قدح القهوة والافطار ، ولازال فى خـواء البيت ينفث حلم الليلة الماضية أنفاسه · تناول رشفة ساخنة ، وذهب الى مكتبه يلقى نظرة أخيرة على ملف قضية اليوم : دعوى السيدة شهيرة سليم ثابت ضد مغيث شديد · الطلبات : التطليق للضرر ·

الرجل الذى لم يكن

أنا وانت نعمتان من كمان حجرى، آنتان بلا صخب..
تحكيان ما فى نفس الانسان من شجن . وداعا لكل
ما كان ذات يوم براقا مشتهى ، لمجد صار الى زوال ..
لحرية ليست سوى وهم ، ران كانت كل ما يفخر به
الانسان . أنا وانت توترات فى ظلال القلق . نخوض
مع النور معركة . نجاهد لاختراق الظلمة ، وحينما
ننجح نخرج ممزقين ، فلنصنع انسانا . كيف يصنع
انسان ؟ « خذ طينا فى راحتك . انفخ فيه . ثم شدد
عليه قبضتك . آدخله الأفران ، كى تطبع عليه
بصمتك » . لم يصنع بعد الانسان . لا يزال الطين
رخوا، والصدع يسرى فى الكيان . ماذا آفعل كى يصنع
انسان ؟ الأمر ليس سهلا . أنتحل أعذارا ، أبحث عن
علل . أقول لنفسى « الموت مكتوب على الانسان »
فتجيبنى أيها الصوت الأسيان « لأنه لا يستحق بعد »
اذن ، لم يصنع بعد الانسان . آخذ طينا فى راحتى .
أنفخ فيه . تهتاج بين جوانحى الأحزان . أذكر
صراعاتك الخشنة المغلفة بسحر اللغز المبهم . ماذا كنت

على وجه التحديد تريد ؟ لماذا كنت مثل الحيات تزحف، بينما للقمم العاليات مثل النسور خلقت ؟ كانت بداخلك بذرة ، لكنك طمرتها فى رماد ملحى عقيم ، وبدلا من أن تزهر فى تربتك السخية شجرة معبقة بالأزاهير ، شقت أرضك المجدبة الحارقة خميلة شـوك ملتـوية الأغصان ، تحمل أوراقا مدببة مسنونة وحصرما حريفا لاذعا ؟ فلأحفر اذن بحثا عن البذرة المطمورة • فلأنبش صندوق الأسرار • لا تجزع • برفق سنستخرج معـا بعض الذكريات • سنرويها عامة مبهمة • لن نحـدد تفاصيل ، ولن نذكر أسماء • لن يفهم غيرنا عمن نتكلم، انى أحبك ، وأريدك أن ترقد هادئا • كفاك ما تقلبت عليه من جمر الطموح المتقد • أتذكر يوم رقادك عـلى السرير ، ودرجة الحمى فى جسدك أربعون ، واصرارك على أن يعمل التكييف باردا حتى تنجز الأوراق التى كلفك بها الثعلب النتن ؟ لم تستمع الى نصح الأطباء • أتذكر اللهفات الموجعة ؟ أتذكر مراوغاتك من أجل أن تصل ، وبأى ثمن ، الى •• الى ماذا بالضبط كنت تريد أن تصل ؟ كان كل ما وصلت اليه أقل مما تستحقه ، وأدنى بكثير عما خلقت من أجله ، انت الرجل المثقف فى وقت قل فيه المثقفون الأصـلاء • كنت آخـر من

يغادر المكتب ، وحتى لو نزلت كنت تترك كلمة ، خشية أن يتصل بك الثعلب النتن ، قد يريدك في أمر فلا يجدك • وكان يهمك على الدوام أن يجدك • غيرت على مر الأيام طريقك • لا تقل انها الظروف • لا تقل انك لو كنت وجدت في زمان آخر لأضحيت انسانا أفضل • لا تقل لى أنا على الأقل هذا ، لأنك تعرف من أنا • ألا تعرف ؟ لا تتظاهر الآن بأنك لا تعرف • فات وقت المراوغات ، فليس لك الآن من الصراحة مهرب • جعلوك غير قادر أن تحب أو أن تكره • ويا للعبء الثقيل الذى كبدك ذلك حتى انهار قلبك • أضحيت تشحن بالحب وبالكراهية حسب اليد التى تمسك بمفتاحك ، وتدير زنبركك • ففى مصنع الدهاء أعيد صنعك ، وركبت في صدرك التروس والاسلاك والأزرار اللازمة • حقا ، ان الدهاة من أمثالك يعرفون جيدا ان الحب عاطفة لا تساوى في سوق النخاسة فلسا ، وان الكراهية ، وهى الوجه الآخر للحب ، قد تكون عاقبتها الخسارة ، ومن ثم لا تساوى هى أيضا شيئا ، فصرت تتقى الحب وتتقى الكراهية ، وتعامل الوجود من حولك بحيادية تامة ، ببرود مطلق ، فتوجت هامتك بالأكاليل ، ووصفت بالموضوعية

وبالعدل ، وانك رجل لكل المناسبات ، لديه متى استحكم الخلاف بين من يحبون ويكرهون الحل الامثل ـ تنكس النظرات الآن ؟ حسنا . تومىء برأسك موافقــا ؟ ألا تستنكر ما أقول ؟ ـ ان الحلــول بالطبــع فى جعبتك لا تحصى ـ فقد كنت دائمــا تنحنى وتلتقط غطيــان الزجاجات الفارغة وقطع الدوبار والأمواس الصدئة . تدسها فى جيبك ، وتقول « تنفع للمستقبل » أذكرك جيدا ، تردد اسمك عاليــا شرقا وغربا . فقــد كنت القطبين وخط الاستواء معا . أو ان شئنا تعبيرا علميا عصريا ، كنت قد خرجت عن نطاق الجاذبية . أتذكر ذلك الرجل الأسمر الذى كانت تضيق عيناه وتلمع ،وهو يجلس وراء مكتبه الصــغير المطعم بالأبانــوس وسن الفيل ، ويأمر ؟ ـ لا أقصد به الثعلب النتن . كلا ، بل أقصد رجلا آخر ـ هذا الرجل من وراء مكتبه ما كان يصدر أوامره بصفة الأمر قط ، ومع ذلك كان يأمر ، وكنت تعرف نبضات فكره حتى قبل أن ينطق لسانه بها، فامتلكته ، كما امتلكك . انت الوحيد الذى احتويته، وتجاوزته ، وتركته وراءك عندما سـقط . مضيت أنت قدما ، ولم يجرؤ ذلك الرجل الأسمر الذى ظلت عيناه تلمعان وتضيقان كلما سحب من غليونه الاسود

نفسا أو نفث منه دفقـة دخان عبق ــ لم يجـرؤ ذلك الرجل الأسمر أن يفقد صداقتك ، رغم انك انضممت الى أعدائه • وبعد ان كنت انت تنتسب اليه وتتباهى بصداقته ، صار هو ينتسب اليك ، وبصداقتك انت ــ فى زمن لا تنفع فيه صداقة ــ يحتمى • أعرف ان هذا كله لم يكن ما تريد • رفعت الى ذات مرة وجهك • رحت تنظر الى ولا تتكلم • نفثت دخان غليونك أكثر من مرة ــ أشك أنك عرفت الألم العميق المطهر ــ وعندما سألتك ما سبب نظرتك الغريبة هـذه الى ، تنهـدت ، وقلت « كانت لى ذات يوم عيناك ، هاتان البريئتـان الصافيتان ، وانى على استعداد أن أضحى بكل ما عندى الآن ــ وهو ليس بالقليل كما تعرف ــ كى تعـود الى نظرتك هذه السارحة الحالمة » • أعرف أن هذا ليس بالأمر الهين • ليس بمستطاع لمن يتحرق للنجاح مثلك أن يعرض عن كل شىء • ليس بمقـدورك أن تتخلى عن كل شىء ، وتعد نفسك ــ مثل العذارى الحكيمات ــ كى تنتظر ، ــ ربما بلا جدوى ولكن بلا كلل ــ قدوم المخلص ، ودون أن يتسلل الى أعماقك ولو لبرهة واحدة السؤال القاصم المزلزل • « هل سيأتى ؟ » • تترك كل شىءوتنتظر • تنتظر من ؟ تنتظر الغازى المنتظر تنتظر

ما قد لا يكون سوى مجرد خاطرة عابرة ، أو ومضة بارقة ، أو نسمة رطبة على جبينك الملتهب دون أن تعرف من أين هبت فى هـذا الهجير المتقـد ، فيعلو الصوت من حلقك قائلا « أومن . آومن » . أعرف ان هـذا ليس بالأمر الهين ، ولا بمستطاع لمن كان يتحرق كل يوم ، للنجاح مثلك . لهـذا كله ، انت لا تريد منى كلمة . لا تصـم أذنيك ، فعن قـريب تتحلل هاتان الاذنان ، وترابا كلك تصبح . لا تشح عنى وجهك ، فلا يسعك الا أن تسمع . انى اليك أتحدث ، والى من غيرك ، وانت فى وقت من الأوقات رددت اعتبارى ، واصطفيتنى من دون كل أصـحاب الألسـنة الذربة ، والمقود الذليل ، والمنطق المتنطع — وما أكثرهم ؟ قلت لى تشد من أزرى « تحريت عنك ، فأجمع الكل عليك » وأعرف انك فى تحرياتك لم تسأل أحدا ، بل راجعت أيامك واستفتيت قلبك ، ورأيت فى صورتك القديمة ، أغلب الأحيان كان يتملكنى الاحساس بأنى مخذول ، وان على أن أمضى فى سعى الحياة وحيدا ، وبلا كلمة تشـجيع . حتى انت صرت فيما بعـد تتجـاهلنى ، واصطفيت لك آخـرين أكثر جـدوى منى ، وحوطت نفسك بأعوان جدد من ذوى المقود الذليل والألسـنة

الذربة · أما أنا فمضيت لا أثق فى المنطق المتنطع ، وجاهدت برومانسيتي الأصلية الا أخذل أحدا ـ وما أكثر من خذلتهم رغم ذلك ـ وصرت عن بعـد أتابع نجاحاتك ، وأشاركك بقلبى أفراحك التى أعرف كم هى عسيرة المنال بالنسبة لقلب مثل قلبك المصمت · رحت تريد المضى الى الأمام ، ولكنك مثل خيول السيرك ظللت تدور وتدور فى الحلبـة · تراوغ ، تتلـون ، تتلوى ، معتقدا انك الى الأمام تمضى · أتعـرف ماذا كان المهم بالنسبة لى أنا ؟ لا شىء · لذلك فقـد لزمت مكانى باصرار وعناد · ولم آبه بسياط مدرب السيرك تهوى · كنت تحدثنى عن النجاح فأحدثك عن المعاناة · كنت تحدثنى عن الأهواء فاذكرك برخاوة المواقف · أحببت أنا الحصى وأحببت أنت اللآلىء المزيفة · كنت تحدثنى عن سحر العيـون ، فأذكرك بمـا ترقرق فى المآقى من دموع · كنت تحدثنى عن القصور والحدائق ذات النافورات ، فأذكرك بالخرائب والحوارى وطفح المجارى · كنت تخرج منديلك المعطر ناصـع البياض وتتظاهر بأنك تجفف عرقك وتقول « كل منـا يفرز عرقا وبصاقا ، فلماذا تنظر على الـدوام الى الجـانب الأسـود من الصـورة ؟ » حدثتك ملتاعا عن الضمائر

المنهارة وتقارير اللجان والذمم الخربة ، فكنت تشيح
وجهك عنى · ثم تعود تقول «لماذا تتحدث مثلهم ؟ بينما
انت لست منهم · وانى لمتأكد من ذلك ، والا لما استمعت
اليك لحظــة » كنت تنعتنى ـ من وراء ظهرى ـ بأننى
قصير النظر ، قليل الحيلة ، وكنت تطلق فى وجهى القول
المأثور لدى الأمريكيين « ما دمت بهذه الحذاقة ، فلماذا
أراك على هــذا الفقر المدقع ؟ » كنت ألسعك أحيــانا
بلســانى · أقول « أعرف أنى قليــل الحيلة ، لــكنى
لا أريد أن أكون مثلك محتالا » كنت تنهض · تتظاهر
غير غاضب ـ وفعلا ما كنت تغضب من أحد بسهولة ـ
وتدعى انك مضطر لتركى فأنت على موعد ســابق ·
ها انت الآن قبــالتى فى مكان ما فى هــذه الظلمــة ،
ستسمعنى وأسمعك ، ولن تشيح بوجهك عنى · سيحملق
محجراك فى الظلمة بحثا عنى · ولن تدعى ـ فلا جدوى
من ادعائك ـ انك على موعد سابق ومضطر لتركى ،
فانت لن تتركنى · وأين لك أن تذهب ؟ سوف تتشبث
بى ، وأتشبث بك فى هــذا الصمت المطبق ، فى هــذا
اللامكان الذى سارت اليه دروبنا وان اختلفت · تقت
الى حد الموت لسماع صوت انسانى واحد ، وقنعت انت
بالتسجيلات تملأ بها اذنيك وما عدت تأبه بالصــداع

يخرب رأسك ، ومضيت تقول « هذا ضريبة النجاح ».
اما أنا فرحت أهرب من اداء هذه الضريبة وأهرع بعيدا
ألوذ بصمت نقى ، ذهبت الى الصحراء ، اوغلت فيها ،
وعلى احدى القمم الجرداء شيدت غلايتى • فى الصباح
يأتى الى عصفور الجبل يلتقط بمنقاره الفتات بلا خوف
من راحتى ، والسحلية العجوز بلسانها تصطاد الهوام
من حولى ، وتزحف الحيـة الملساء وتلتف على سـاقى
ولا تلدغنى ، فهى تشعر بالأمان الذى تفتقـده انت ،
ويفتقده كل من حولك ، وفى آذنى تهمس رياح الخلاء
بأحاديث ما عدت انت وأمثالك الجهـابذة تفهمونها •
سخرت منى ، وقلت لمن حولك من ذوى المنطق المتنطع
والألسنة الذربة « اتركوه ، انه مسكين • مسـه لطف
فلندع له بالشفاء ، » آما آنا فرحت آدعو لنفسى بألا
أشـفى ، حتى لا تضمنى يـوما الى بطانتك • أريـد
سماع صـوت حقيقى ، كان هـذا آهم ما يشـغلنى ،
وما يشغلك انت حقا ، وتهرب منه • أعرف ذلك عنك •
لذا كانت تجتاحنى الرغبة فى البـكاء كلمـا ذكر لى
اسمك • تذكر عندما استدعاك الرجل الأعرج الى مكتبه
على مشارف الصحراء بعد مواقفك الجريئة السابقة وهى
الآن مواقف قديمة جدا ، هيل عليها من ركامات الحياة

الكثير ونسيت ، وحتى انت ما عدت تذكرها ، ولا تحب أن يذكرك بها أحد ـ تذكر عندما استدعاك الى مكتبه خلف الأسوار ، وهناك فى حضن جبل المقطم ، حدد لك الساعة السابعة صباحا موعدا ، فأمضيت الليل كله تستمع الى سيمفونيتك الحبيبة ، التاسعة ، وامتلأ كيانك بأنغام الكورال التى تتصاعد وتهبط فى اتساق يحيل الضعف الى قوة ، ويعزز القوة بالاباء والتواضع • وذهبت لمقابلته ، وبالاتهامات ووجهت ، وأجبت • بحصافة أجبت • وعندما خرجت بعد أيام بلا أظافر قلت لنا انه لم ينقذك الا قراءاتك • تذكرت بريخت • وقررت أن تمثل دور جاليليو من جديد • فمحن المثقفين تعالج بمزيد من الثقافة ، ولا شيء غير ذلك • وأعلنت ـ وماذا يضير ذلك ، أو من وجه الحقيقة يغير ؟ ـ ان ما حدث لم يكن ، كما ناديت من قبل ، مجرد انقلاب • ألازلت تذكر اذن جاليليو ، وبيتهوفن والسيمفونية التاسعة وبروميثيوس، والثورمينوس وقصر التيه وابنته الجميلة ، وبدر البدور وانتيجونى ؟ هذه هى الأشياء التى تحبها حقا ، والتى تريدها روحك حقا ، أما ماعدا ذلك مما انالك اياه قدرك فلم يكن ما تريده ، وان كنت للأسف لا تأبه أيضا • ولا يكفى كى يضيع الانسان

الا يريد فحسب بل وآن يأبى • وهذا الاباء لم يكن من شـيمتك ، أو كان ـ على ما أظهرته الأيام ـ هشـا ، فحطمه فيك ذلك الذى استدعاك الى حضن الجبل ، وفى هدوء استجوبك وانت تعرف أن أسـئلته ليست مجرد أسئلة ، بل مسامير تنغرس فى نعشـك • قلت لى ذات صباح ـ اذكر ذلك ، كنا نسير الهوينا فى طرقات حديقة الشلالات الظليلة ، وأشـعة الشمس تتسلل من أوراق الشجر الكثيفة ، وتطبع على الأرض عند أقدامنا دنانير ذهبية ـ قلت لى « ليس صحيحا فى هـذا الزمان اننا نقرأ هامليت ، بل كل منا هو هامليت نفسه • ومن منا يستطيع ألا يكـون هامليت ، ولهامليت كل يوم ألف صورة • وكل منا يختار الصـورة التى يتقمصـها ، ويمضى فى الحياة بحثا عن اليقين ، بلا يقين يتخبط •» ذات يوم ، فى المدرسـة الابتدائيـة ـ أتذكرها ؟ ـ

العطارين الابتدائية ، فى حفل المدرسة السنوى مثلنا مسرحيـة • كنت انت الأمير الذى سـخطته السـاحرة الشريرة ضفدعة دميمة ، لمجرد انك رفضت أن تنصاع لها ، فلعنتك بأن تظل ضفدعة الى آن تقابل فتاة جميلة

تحبك • تأخذك فى راحتيها وترفعك الى وجهها الصبوح ، ولا تأنف من النظـر اليـك ، ولا من لحمك اللـزج ،

وأنفاسك العطنة . سوف تطبع الأميرة على جبينك قبلة، وعندئذ ستعود اليك هيئتك البشرية، آيها الأمير الصغير. أتذكر ؟ أما أنا فقد مثلت دورا ثانويا . كنت أحد أتباعك عندما كنت آميرا . وسخطت بدورى ضفدعا. ولكن الغفران والقبلات للأمراء وحدهم ـ ومراكب الشمس والأبدية للفراعين وحدهم ـ فظللت حتى بعد أن رحلت مع أميرتك، ضفدعا، الى جوار المستنقع أنقنق مع سائر الرفاق الضفادع فى ضوء القمر ، علك تعود يوما أيها الأمير ، يا أميرنا ، لتعترف بنا ، فتعود الينا مثلك هيئة البشر ، وقد ظللت منذ تلك الأيام تعتقد أنك دميما مثل الضفدع ، ولم تجد يوما تلك الأميرة التى تطبع على جبينك قبلة الخلاص ، آما أنا فمثل البشر العاديين ، نسيت تلك القصة التمثيلية ، فلم يكن لى أدنى أمل فى أمير أو أميرة . ظللت انت معذبا ، أما أنا فلم يكن لى حتى الحق فى آن آتعذب . وما الجدوى ؟ لم يكن لى سوى أوراقى أبوح لها بأشجانى . ولم تأت الى لا بالليل ولا بالنهار آميرة تطبع على جبينى قبلتها ، فأضىء كما أضأت انت بغاز الفلوريسنت . كان مصباحى أنا يضاء بأى زيت من زيوت التموين ، أحصل عليه بالوقوف فى الطوابير آمام الجمعيات والبقالين .

ولم يقف عند باب بيتى عسكرى للحراسة ، كما وقف
عند بابك يوم وليت الوزارة ، ونسيت أيام الضفدعة ،
بل ونسيت الضفادع كلها ، بما فيها نفسك ، يا سيادة
الوزير ، انى أتساءل حقا ، أكنت أميرا سخط ضفدعا ،
أم كنت ولازلت ضفدعا ؟ عندما كنا صغارا فى المدرسة
وسئلنا « ماذا ستفعل لو أعطيت طاقية الاخفاء ؟ » لمعت
عيناك ، وقلت بصوت يتدفق حيوية « ياه ، بل ما الذى
لن أفعله ! بادىء ذى بدء سأمضى الى السلطان أصرعه ،
أجلس على كرسيه ، وأتزوج ابنته ، وأستمتع بملكه
كله » أما أنا فلم أكن أعرف بما أجيب ، فلم أكن أتصور
لضآلة شأنى اننى باد للعيان حقا . وصمت ولم أجب ،
فلما ألح المدرس على بالسؤال ، تفتق ذهنى عن اجابة .
قلت « سوف أطوف بالناس أعرف أحوالهم » فعاد
المدرس يسألنى « واذا ما تبينت سوءا ماذا تفعل ؟ »
انبريت انت سريعا وأجبت « سأطيح الرقاب بسيف
السلطان » أما أنا فظللت حائرا ، وأجبت بعد لأى
« لا شىء » نظر الى مدرس التاريخ مستوضحا ،
فاستطردت قائلا « سأغض البصر وأتجاهل العيوب ،
وأمضى أبحث عما يروقنى . مثلا ، سأستمتع كثيرا
بالطير يضع البيض فى أعشاشه » ضحك الأستاذ والفصل

كله من اجابتى ، وقال لى « انت ، على نياتك ، يابنى أما انت ، يا همام وأشار اليك « فستصل » وانضممت الى القمصان الزرق، وكنت دائب الاصطفاف فى الطوابير عندما يأتى الى المدرسة زائر مهم ، وباسم الحفاظ على النظام مارست منذ صغرك سلطة الأمر والنهى فى الحفلات ومباريات كرة السلة والقدم • ثم شببت تمساحا عملاقا ، تعيش فى البرك الآسنة وتتمتع بأنياب حداد وشهية خارقة • لم تفكر فى أختيك العانستين • وسرقت مصاغ أمك العجوز ، وعندما بلغها النبأ سقطت المسكينة ميتة من هول ما فعلت وكنت تعرف ، أيها الفقيه الجنائى الكبير ، ان القانون لن يطولك ، فقد ماتت من تستطيع أن تقدم فيك الشكوى لتحرك ضدك دعوى العقاب • كنت تحب أن تقلد أصوات الخنازير فى الحظائر ، وكنت تقول ان هذا يكسبك قدرا كبيرا من المهابة ، كما انه طريقك الى اكتساب الشعبية حتى لا تنفر منك الأغلبية • كنت تقتات الخيزران تخشنا ، وسنا لأسنانك ، ارهابا لأعدائك ورحمة بفرائسك، ولكنك أيضا كنت تواظب على حمامات البخار فى الفنادق الكبيرة حفاظا على شبابك ، وتقول ان المظهر عليه معول كبير فى النجاح الاجتماعى ، فاذا

ما اختليت بنفسك. وخلعت فى الحمام ملابسك، ولمحت
من خلال غمام البخـار هيئتك كنت ترى رأس ثـور ،
وحافرى ماعز ، وذيل مخلوق يشبه القـرد أحيـانا ،
والانسان أحيانا أخرى. حيوان غامض مريب، تخشى منه
العواقب ، وتطفر الدموع رثاء له من المـآقى . كنت
تكره أن يلقبـوك بالدكتـاتور ، وتقنع بأن ينـادوك
بالدكتور . تعرف اننى من طبيعة مختلفة ، ربما أسوأ
من طبيعتك ومن خامة مختلفـة عن خامتك . أتشبث
بالأحلام ، وأرى فيها أشياء كثيرة . قلت عنى ذات مرة
وأنا أكتب عن القانون فى الأسرة الثالثة « ليس هذا
وقت أحلام مثل هذه » ونعتنى بالهروب من مواجهـة
المشكلات المعاصرة . أما أنا فكنت مشتبكا بالأحلام .
ذات مرة أحلم بيد عجوز يمسك بيد طفل فى وسـط
ضبابى . ومرة أخرى ظللت أحلم بأصبع يضغط على
زناد مسـدس ويطلق رصاصاته عـلى الاعلانات التى
تزحم الشوارع ، وذات مرة فى بواكير شبابى ـ وهذا
أخطر من كل شىء ـ حلمت بأننى التقيت بالشيطان فى
بيت خلوى . وقلت له ـ وربما كنت أقرأ آنذاك مأساة
الدكتور فاوست وتذكار جيتى للعقـاد ـ « اننى لن
أتركك تنتصر » فقهقه مفيستوفليس ضاحكا ، وهـو

يبتعد فى غياهب البيت الخلوى ، ويتلاشى فى الظلمة ، تاركا بأعماقى شعورا بأننى لم أفلح فى تحـد • ولهذا فقد مضيت طوال حيـاتى لا آدع لذلك الذى راوغك وخدعك فرصة أن ينتصر على ، ولو ترتب عـلى ذلك الا أكسب معركة . المهم الا أخسر معركة • يقـولون انك لا تفقد مالا تريد حقا ان تفقده • وقد أردت أن تكون بطلا ، ومن الصعب تحـديد ما البطولة • كنت تحدثنى عن الغالب فأحدثك عن المهزوم ، تحدثنى عن المنتصر فأحدثك عن الشهيد • كنت تقول لى انك تريد أن تكون قمة ، فأحدثك عن الأحجار التى تدحرجت من حالق ، وعند السـفح استقرت ، ونمت من حولهـا الأعشاب تضمد جراحها ، فكنت تقول « آبدا ! آبدا ! سأكون صخرا وسأصمد ! لعن الله العشب! » كنت تكره كل ما هو طرى ، فأصبحت حسـكا وشـوكا جارحا ، معـذرة ، انكسرت اليـوم القشرة التى تغلف جرحى فاشـتد ألمى ، وأحسست بعـذابى • يلـوموننى • ينصحوننى • يطالبوننى بأمر هو فى نظرهم سهل مريح • لا أستطيع • لا أسـتطيع أن أتأقلم • لا أسـتطيع أن أندمج فى بيئة زائفة • فلأتشرنق اذن • فلأغزل من حولى قبرى ، وألتف بخيـوط أفرزها من داخلى ، كى

أموت فى الحرير • وبعد ذلك ، سأشق كفنى ، وأبعث
فراشة • وبعيدا عنهم أطير • سيصحو الضمير يوما ،
وبأظافره سيخمش الجلد ، وينزع عنـه بصمات تلك
الأيام • على من هذا النواح الذى فى أعماق الليل يعلو
ويخفت دون أن يخبو ؟ أهو عليك أم عـلى ؟ فلنصنع
انسانا • فلنحاول • سآتى مع الريح، أهمس بكلماتى •
سآتى فى الحلم ، اهسهس بشكاتى • لا تقطع الأمل ،
فالنواح قادم من وراء الغمام ، وتلال المقطم ، والموج،
والحثالات • الانسان قادم لا محالة • عرضت عليـك
حياتى ، فأبديت استهجانك ، وكنت الناجح ، فلم أنبس
بكلمة ، ولكن عينى قالتا ما لم تنطق به شفتاى ، وان
خفق به قلبانا • كنا نجوب الأزقة والشوارع فى محرم
بك • وكنت أحس بدفء اخوتك • ماكنا نلعب مع بقية
الرفاق الا فى جانب واحد • لم تكن انت قط فى جانب
الحراميـة ، وأنا فى جانب العسـكر • الى أن التقيت
بأولئك الرفاق الأثرياء ، وعلى الأخص ابن صـاحب
القصر بشارع الفردوس المجاور لبيتى الذى كنت أطل
من شباكه البحرى فتقع عيناى على جناح الخادمات فى
القصر • صبايا متـوردات الخـدود يأتى بهن البك
العجوز من العزبة للخدمة ، وليدلكن سـاقيه كل ليلة

لتخف آلامها . ذهبت مع الأثرياء . اكتشفت ان
بالامكان أن يبهرك الثراء ويغريك الخدم والحشم .
وصرت تقضى ساعات يومك وآمسياتك معهم . وظللت
أنا وحدى أجتر كتبى ، فأنجح فى الامتحانات بأعلى
الدرجات ، وما كان ذلك الا تعويضا لما آحس به من
عزلة . وما كنت فى أعماقى الا فاشلا ، فمن حولى
لا أحد ، ولا انت ، آيها الحبيب الغالى ، يا صديق
الطفولة الباكرة ، الى آن التقيت بذلك الفتى الذى
يشبه وجهه وجه الفأر ، ويهوى قراءة آشعار طاغور .
فوجدت بصحبته تحت آشجار الشلالات بعض العزاء ،
ولكننى لم آنسك . وما كنت آود عن صداقتك بديلا ،
لكن الحياة ــ ويا لها من عبء ثقيل فى بعض الأحيان ــ
تفرض عليك الاب والام والاشقاء بل والاصدقاء
أيضا . الى أن لفظك أصدقاؤك الأغنياء ، فقد كنت
فقيرا على أى حال ، وان كنت لم تبلغ فى فقرك الدرك
الذى أنزلنى القدر اليه فى ليل الحياة ، فعدت الى ،
ووجدت فيك عزائى من جديد ، وان كان الجرح ما عاد
يلتئم . الصدع فى الكيان اذن . كنت أحس فى قرارة
نفسى انك قادر أن تتركنى فى آية لحظة ، وتتخلى عنى
من جديد ، وقد ظللت فى قرارك تشتاق الى الأغنياء

وتتطلع اليهم ، فليس ثمة ما يمنع اذن من آن تدير لى ظهرك وتخذلنى ، كما فعـل بك صحابك الأغنياء من قبـل : الخطأ اذن ليس فى حيـــاتى ، بل فيك انت ، يا صاحبى وتوأم روحى • تعال ، آنظر الى السماوات الزرقاء ، الى الأشـجار الخضراء ، الى المقاهى عنـدما تخلو مناضدها من النزلاء آخر الليل ، وتخيم العزلة الممضـة فى الأرجاء • تعـال الى الشـمس والبحـر والقمر • أتذكر عندما كنا نستيقظ فى صبانا مبكرين، ونفتح النافذة الشرقية لنشاهد الشـمس وهى تشرق من هناك ، من وراء الأبنيـة ولم تكن آنذاك شـاهقة خانقة للانفاس مثل آبنية اليوم ؟ كم كنا نحس أعماقنا تغتسل كل صباح ، آما الآن فقد زادت أدرانـنـا ، ولم نعد بقادرين آن نحقق لأعماقنا مثـل هـذا الاغتسال القديم • أتذكر جرس المزلقان الذى كنا نسمعه آتيا من بعيد ، وصفير القطارات قبل آن تدخل محطة سيدى جابر ؟ أتذكر ملمس الرمال بشاطىء الشاطبى ، عندما كنا نذهب اليه أيام الربيع والخريف ، وقد خـلا من المصطافين، فلا يجد آحدا يعطيه جماله سوانا، نحن نزلاء كابينة صبحى الشـقى البديع ، وبالقرب منا كابينـة درويش بطل السباحة الذى ما لبث آن مات فى شبابه

بالنزلة الشعبية ؟ هل مات كل شيء ؟ هل انت أيضا مت حقا ؟ أتذكر الصخرة التى كنـا نتسابق فى الوصـول اليها لننعم بملمسها الخشن ؟ هى لازالت هناك ، لكنها ما عادت تذكرنا ، ونحن أيضا ما عدنا نذكرها الا بين الحين والحين ، كصورة باهتة وافدة من عالم سـكونى أبدى ، ليس عالم الأحياء ٠ أصبحت أرى الحياة بدونك شيئا رهيبـا ، سراديب ، ومزالق ، وحـوائط تحجب ما وراءها فلا ترى الا أضواء شاحبة ، وأبواب تفتح لتدخل منها هياكل واصلات دميمة ٠ ماذا أفعل لمواجهة الكارثة ؟ ما بقى لى قليل ٠ لتبق الحالة اذن على ما هى عليه ٠ حذار من تدهور الأوضاع ٠ وليواجه المـوقف بحصافة ٠ أصبح الجميع كلفين بالمنافع العاجلة ، وقلت مبالاتهم بالحقائق ٠ الحياة سرقتهـا الأرقام ، وخلف أسوار الصـمت تنتظرنا مرآة معتمة ٠ آن الأوان كى تسمع صوت الصمت الذى كنت على الدوام تهرب منه ٠ مرت السنين ، باردة خاوية ، دون أن تقوى على نبـذ الأكاذيب والثرثرات والرعب ٠ كنت ترقد فى حضن لست منه ، وماذا كان بوسع هذا الحضن أن يقدم لك ؟ لا تعتقـد انك مت ، بل أنت استيقظت ، والى حضن الأرض هـرعت ٠ آن الأوان آن تفضى بهمـومك ،

وستصغى اليهـا آذان الصـمت · ياالله ، من ارثى ؟
أأرثيك انت ، أم تراني أنا الذى مت ؟ كل ما يمكن
أن يقال قيل ، فلنصمت الآن · ليس لنا أعياد هنـا ،
ولا حاجة بنا الى الصخب · لو عدت اليوم لن تعرفنا ·
ستجد الأبواب موصدة · ستدق ولا من مجيب · هؤلاء
الأحياء ينسون ، ما ان تغيب عن أسماعهم وأبصارهم
ينسونك · ما ان تنقطع عنهم رشاويك يعرضون عنك ·
لا تخش أن تنفضح الأسرار، فلا مشرق هنا لنهار، والليل
ستار ، يحاصرك بحوائطه السميكة السوداء ، ويحميك
ــ حتى من نفسك يحميك ــ اذ يخنق الوحش الضارى
الذى بداخلك · لن تسمع بعد الآن زئيره · انت هنـا
فى مأمن على الأخص من نفسك الأمارة بالسوء ، فانته
يا صاحبى الآن فى قصر التيـه ، ومن حـولك خنادق
عميقة ، ليس بممكن أن يجتازها اليك أحد من منافقيك
أو مستغليك · على أى شىء تتحسر ؟ على المبنى الشاهق،
والمصعد المبطن بالقطيفة الحمراء ، يرتفع الى المطعم ،
حيث كنت تدعو ــ بل تستدرج ــ من تريد أن تنتزع
منه مغنما ، أو كان لك فى شىء يملكه مطمع ؟ عليك أن
تكتم نشيجك ، فليس من المجدى أن يتبين أحد نقاءك ·
ولا تتقزز من رائحتك ، فهذه ليلتك الأولى ه

نتحادث • لن أوصد بابى • وانى لمقدر انك بحاجة الى
وجودى • كلنا بحاجة الى وجود الآخر • كنت على الدوام
أنتظر صوتا ، نداء ، طائرا يحط على أغصان حديقة
الأحجار الجدباء هذه • مرحبا بك الآن ، مرحبا • الروح
توحشت ، وامتلأت رعبا وتوجسا • ما عاد فى العودة
الى هناك أمل • طريق العالم ملىء بالشراك ، والغرف
محكمة الاغلاق ، مهدمة • ما عدت أريد أن أرحل •
وما الجدوى ؟ أن أصنع انسانا ؟ غيرى سيحاول • كنت
على الدوام أرحل • من حضن التراب كنت أهرب ،
ولكنى من جديد كنت أتردى فى الجسد • كنت أقول
من يدرى ربما وجد فى مكان آخر شىء ينتظرنى
وينتظرك ، الى أن استقر بى المقام هنا ، حيث تنمحى
المعارك ظافرة كانت أو خاسرة • هنا ، ستحاول أن
تستعيد أمجادك • ثم تمل المحاولة ، فتكف • ستنكسر
القشرة الزائفة من حولك على صخرة العدم ، فتنزف
الكلمات من جراحك ، وتهرع الى باحثا عن مسكن •
تعال اذن ننتحى ركنا قصيا معتما فى هذه المتاهة ،
ونضمد الجراح القديمة • تعال • يا أيها الصديق ،
الدنيا من حولنا خواء مترامى الأطراف ، وأرواحنا
هياكل من كل أمل خواء • أيها القراقوز الأعظم ،

يا خيال الظل المبدع ، يا من تنوح وتراوغ وتتوسل ،
لن يبكيك هنا عدو أو حبيب · انهدم صندوق الدنيا ،
وما عاد لمحرك الخيوط وجود · والكل ماتوا معك ،
يا أيها القراقوز الأعظم · يا من توقعت منك كل ما هو
مباغت ومستحيل ، كفاك استجداء للأمجاد · كفاك !

للسراديب أبواب كثيرة

للسراديب أبـواب كثيرة . وجدت أمامى بابين ، الأول كتب عليه النعيم ، والآخر كتب عليه محاضرة عن النعيم . ترددت قليلا . شككت فى الباب الأول . كان مواربا ومعتما وخشبه متـآكلا . اندفعت أدخـل الى المحاضرة .

ألقت بى المقادير تلك الليلة الى جحر مطعم مـع صحبة ممتعة . تحدثنا . وشربنا نبيذا أحمر ، أقداحا ، أقداحا . تحدثنا عن الحضارات ، عن الكتابات المحفورة فى الصخر ، عن السعادة والمتعة . عازف البيانو ينقر على أصابع آلتـه . نغمات حانيـة معـادة . كل شىء مستهلك . وعلى ضوء الشموع أيضا تحدثنا عن الملاك والشيطان اللذين يتصارعان فى كيان الانسان . قال الأستاذ « فى الانسان طاقة على تخريب غيره بل ونفسه أيضا » وقلت « السعادة ليست تغليب الخير ، يا سادة . متى اختل هذا التوازن لحق الخراب بالانسان حتما . » قال ذو الشعر الأهوج « اللحم فى هـذا المطعم طرى ولذيذ » رد الداعى يقول « يعتنى باعداد الطعام فى

هذا المطعم • اتى اليه كثيرا» قلت «ليس خلاص الانسان حتى فى تغليب الخير ، فغلبة الخير أيضا شقاء للانسان» نظر اليك الأستاذ مستوضحا • قلت « تعرفون كم من الملايين قتلوا وعذبوا باسم الأديان ، يا أصحاب الليلة الحلوة ؟ الصواب أن نحقق التوازن الدقيق بين الخير والشر فى الأعماق • هـل تعتقدون أن اجتثاث الشر ممكن ؟ يا للشر الذى يتفجر عنـد اجتثـاث الشر من التربة البشرية • عندئذ تعرفون أيضا ماذا يحـدث ؟ يتحول الخـير الى شر أكبر • انه يستشرى • ويضحى أكثر ضراوة مادام قد خلا له الحقل ليرتع • وتستشعر من جديد الحاجة الى مصارعة هذا الشر، وكبحه • فلنعمل اذن من أجل تحقيق التوازن الحق • وهـو أمر ليس بالسهل أصلا •» ضحك الداعى ، وقال «انه النبيذ الذى يتكلم » • ورفع قدحه الأخير عاليا وقال « فلنشرب نخب هـذه الندوة » اصطكت الأقداح ببعضهـا • وارتج السائل الأحمر المعتق • وغاب فى الحلوق العطشى • •

قال لك « لابد أن نؤسس لجنة تحضيرية ، تتقصى آثار الحوافر عبر العصور • ولابد انتا واجدون آثار حوافر واحدة عندنا وعندكم » نهض وسار بخطى نشطة

« سنذهب الى ثوروبولوس وهو من أكبر الفلاسـفة . ليس عندنا فحسب ، بل فى العالم كله » .

دخلنا عليه . كان منكبا على أوراق يقرأها . لم يكترث بدخولنا راح يقرأ وهو يخور . يعلو خواره ثم ينهد فجأة ، ليعود يعلو من جديد فى ايقـاع منتظم . رفع أنظاره الينـا من تحت حاجبيـه الكثيفين اللذين وخطهما الشيب . بدت عيناه الزرقاوان باهتتين من وطأة السنين والافراط فى القراءة . دعانا بيده الممتلئة الجعدة الى الجلوس . امتدت الشعيرات فى منتصف كل من حاجبيه واستطالت ، فبدت كذيلين يهشـان ذبابا اندثر ولم يعدله فى الغرفة الرخامية وجود .

قال لنا انه يوافق على ماعرضناه عليه وأضاف ان الثور ليس ثورا واحدا ، فهناك الثور اليونانى والثور الأوربى وأيضا الثور العربى ، وبفضـل هـذا الأخير ظلت آثار حوافر الثور منطبعة على التراب المعاصر . ثم هز رأسه وقال « ترى بفضل اى الثيران ـ الأمريكى مثلا ؟! ـ سيمتد وجود الثور الى الأكوان الأخرى ؟» . لم نفهم . علا خواره وقال « الى الفضاء الخارجى » . قلت له « توجد هناك ثيران آخرى بالانتظار » خفض

جبينه ، كما لو كان يشرع قرنيـه لهجمة مفاجئة وقال « يا للحكمة الرائعـة ! أتعتقـد ذلك ؟ » هززت رأسى مؤكدا أو على وجه التحديد مستسلما لمصيرى ، فانهـد خواره وقال « ليس ذلك بغريب ممن هو آت من بلاد آبيس ، رب الحكمة والعافية • ولـكن الثور الأرضى سيسود ويعلو ، لأنه الثور الدموى ، وغيره لايزال يقتات الأعشاب ويقيم بها أوده » • قلت « انها تقتات الآن حديدا صلبا ورقائق معدنية » •

أخرج من جيب صدريته المنبسطة على بطنه المنبعج زجاجة ذات حافة مثل الملعقة • وضعها فى فمه ، وراح يرشف منها حتى هدأ تنفسه ، وانتظم خواره • نهض وقال « بنا هيا » •

تبعناه الى غرفة القرن الأكبر •

على المكتب الفاخر جلس حمل وديع ، يلبس عـلى عينيه نظارة سوداء • نهض مرحبـا بنا ، وقال « كل جهـودى تحت أمركـم » • قفز الى مخيلتى حلم الليلة البارحة • فتحت نافذة غرفتى ، فوجدت باب الحظيرة مفتوحا ، وقد سبحت فى الفضاء فوق سقوف البيـوت ثيران صغيرة وديعة متآلفة ، ترفرف أجنحتها ، فتحلق

فى تكوينات متناسقة دون صوت . خيم على المنظر صفاء فريد . وراحت الثيران الرشيقة تحرك سيقانها فوق السحب وتتمايل . بدت بطونها وردية اللون . نظرت الى أسفل ، كان باب الحظيرة البنفسجى مفتوحا على مصراعيه ، وفوقها السماء قد أضاءها نور نهارى شاحب ذاب فيه ضياء الفجر . والسماء اغتسلت فبدت زرقاء فاتحة . خلفية رائعة لقرون الثيران الصغيرة الوديعة وحوافرها وذيولها . لماذا تبدو المخلوقات، حتى الوحوش ، فى طفولتها قريبة الى القلب ، حبيبة ؟!

قالت ذات الصوت الغاضب على الدوام «سحقا لهم . يقولون ان سقراط كان بداية الشرخ الذى تصدعت به الحضارة الاغريقية كلها . ولكن لماذا نتأثر بالصورة التى رسمها أفلاطون لمعلمه ؟ لماذا لا نرجع الى ما قاله المعاصرون الآخرون له ؟ لماذا لا نرجع الى التاريخ ؟ » قال صاحب الشعر الأهوج « ليس ثمة تاريخ . التاريخ أكاذيب . فلنقصه » سأل الأستاذ « وماذا نفعل ؟ » « على الأقل ، لانخدع . ونكتسب من ذلك الشجاعة أن نبنى التاريخ غير المزيف . كل ما هو مرجو فى هذا المضمار أن نؤمن فحسب » « تقول نؤمن ؟ بماذا ؟ »

« بأن بالا مكان أن يسود الخير • أن نحسن التقدير دوما • أن نؤمن بالانسان فحسب » •

قهقه المحافظ ضاحكا ، وأطلق نكتته التى أسمعها منه للمرة الثالثة • « عندمالفظ أنفاسه صعدت روحه الى الجحيم فلم يقبلها هادس ، وأيضا لم يقبلها حارس النعيم • وازاء شكواه التى اضجرت الآلهة بأعلى الجبل • قيل لحارس النعيم « خذه عندك • أوجد له ركنـا • تصرف • » ألحقه الحارس بعمل صغير • كلفه أن يتولى الارصاد الجوية • يسقط الأمطار ، يبرق، يشعل الأرض بحر الهجير • ذات مرة تلقت الرياسة من البابا شكوى تقول « ماذا فى الأمر ؟ كيف تجرى الأمور هناك ؟ • الأمطار تهطل فى روما بلا انقطاع » أبلغت الشكوى الى حارس النعيم • استدعى الدخيل الزائد عن الحاجة ، وسأله « ماذا جرى لعقلك ؟ ما هـذه الأمطار كلها ؟ » قال له متوسـلا « ابن أخى يملك فى روما محـلا لبيع المظلات • دعه يكسب من هذه الفرصة قرشين » •

وما دام الشىء بالشىء يذكر فلأقص النكتة الأخرى التى أسمعها للمرة الرابعة « آخذها الى مزرعة دجاج • مائة دجاجة وديك واحد • مائة دجاجة وديك واحد !

سألت المشرف « هذا الديك يقدر على الدجاجات المائة هذه ؟ » برم المشرف شاربه ، وأجاب كما لو كان الأمر يخصه هو شخصيا « وعلى مائة آخرى مثلها أيضا » • أشارت الى زوجها وقالت « قل له » •

هرولت ، ودلفت من الباب الزجاجى
نظر اليك بنظرات تصدك •
قال « شطبنا • المطعم مغلق ، الآن »
قلت « لكنهم قالوا لى الغداء حتى الثالثة »
قال « خدعوك • لم يبق لدينا من لحم الثور شىء »

أومأ برأسه الى لافتة علقت على مقبض الباب الزجاجى قرأت « مغلق »

قال « يمكنك على اى حال ان تذهب الى الكافتيريا ربما كان لديهم بعض من روث الثور أو شىء من دمه • »

خرجت ناقما • لكنك لم تفتح فمك ، فما من أحد هنا يصدع لامرك •

وددت ان اسألك ، وان تجيب باخلاص ووضوح •

ما الذى جعلك تخرج من جحرك ، وتجوس فى هـذه العجوز ، ثقل جناحاك وماعدت تقدر على التحليق عاليا ؟
ما الذى جعلك تخرج من جحرك وتجوس فى هـذه الفيافى ، ومثل صياد طموح مضيت تضرب المجداف مبتعدا عن المياه الآمنة حيث يمكنك آن تلقى بالشباك فتمتلىء بزاد يومك ؟ آثرت ان تنتقى من المحيط بقعة غير مطروقة علك تلتقى بسمك شائك غريب فسفورى اللـون ، لم يسبق ان علق بشباك صيـاد ممن يطوفون بقواربهم عندالشواطىء الوادعة • كنت تسمع عن مثل هـذا السمك الغريب وغيره من خفـايا البحر العـامر بالاسرار ، لكنك لم تكن لتعتقد ان شباكك العادية بقادرة أن تعلق به ، وتطوله • ثم كنت تقول مع غيرك من أهل قرية الصيادين المتواضعة «ومن ذا الذى يشترى منا جهد اليوم اذا جلبنا فى قواربنا مثل هذه الاسماك التى يغلب الشوك فيها والزعانف على اللحم ؟ واذا لم يشتر تجـار الحلقة منا صيدنا ، فمن الذى يكفل لنا ولأولادنا قوت يومنا ، وعلى الأخص أيام الضنك هذه ؟! »

أرادوا أن يحتالوا عليك • آن يلعبوا بك • أفهموك انك شىء أكبر مما انت • حاولوا آن يوهموك • لجأوا الى

ملاطفتك ، وتخديرك . تشعر بانك لست انت ؟ بسرعة
هداك احساسك ، احساسك الطيني الفطرى ، انت العبد
لله الفقير الذى كنت تستطيع أن تصبح شيئا أكبر بكثير
مما أنت عليه ، فلم تقبل (ياللك من ذكى ؟!) وآثرت
البساطة والقلق على كل رفاهية وملق . ظللت فى الظل،
لأن الظل رطب ، وليس الدفء احساس العادلين . انت
أيها الوديع الأبله الحافى ، ذو الجيب العـامر بالنجوم
وغطيان الزجاجات وحبات الزلط . انت ، يدورون
حولك ، يعطرونك ، وينخسونك بكلمات الاطـراء .
ينحنون أمامك، ولا حتى تكاد تبدو على شفاههم ابتسامات
السخرية . تكاد كلماتهم تخرق طبلـة الأذن . وتعلـق
حركاتهم بمقلتيك مثل القذى ، انت ؟ ياللك من مسكين !
انت ، أيها الأرنب الوديع ، وقعت بين مخالب الثعالب ؟
اعطهم الدرس اذن . قل « لا » ولتهو الكلمة على رؤوسهم،
وليعرفوا ان لحم الأرنب صعب على اضراسهم النخرة .
أعددت حقيبتك للرحيل، وقبلت حتى أن تدفع الفواتير .
وتشفى فيك صبى الفندق الذى حمل حقائبك عنـد
حضورك ، ولم تخرج يدك من جيبك تنقده البقشيش
الذى هو تقليد معروف حتى فى هذه المدينة ذات الحيطان
اللامعة التى تزهو بنقول زائفة عن آثار حضارة بادت

وأضحت مجـرد سـلعة تحقق للمعـاصرين المـكاسب الباذخة ٠

« ماذا قلت ؟ ولمـاذا تسرعت ؟ نأسف نحن لم نكن نقصد» وبدأت مداورات جديدة، وتنازلات على مضض ٠ وكظم الغيظ فى النهاية ٠ النهاية ؟ نحن مازلنا لم ننته بعد ٠ وربما ادخرت النهاية للصفحة الأخيرة من هـذه الملحمة الخائبة ٠ ولكن يكفى الآن ان تعرف جيـدا ان الأرنب يمكن أن يجـوس فى غـابة الثعالب ، صـدق او لا تصـدق ٠أتعرف متى ؟ اذا كانت فروته بيضـاء ناصعة البياض مثل نقطة الصفر ٠

كنت بحاجة اليك

عندما كنت شابا،كنت قديرا فى المحاكاة . ذات مرة رسمت مطارا على ورقة كبيرة ، وبسطتها على أرض خلاء الى جوار بيتنا القديم فأخذت الطائرات تهبط عليه .

. . . . .

من بعيـــد تلــوح لى حجرتى . المرآة من ورق الشيكولاتة ، وتحت قدمى السلحفاة التى أتفاءل بهـــا فى حياتى ، وفى الركن الزير الذى أغتسل منه ، ومن السقف تتدلى سلسلة مفاتيح على شكل نجفة ، وعنـــد الباب ، فوق البســاط الأخضر قبقابى المزركش الذى اعتدت أن أرتديه ، أما شباكى فيطل على أرض فضاء خربة ، علقت عليها لافتة باهتة « للبيع » .

. . . . .

ذرعت الشارع مع ابنى الى الرصيف المقابل ، حيث ينتظر التلاميذ كل صباح اتوبيس المدرسة ، عند الناصية التى يطل عليها بيت ذو سور من قضبان حديدية عمودية رمادية صدئة .

مـا أن وضعت حقيبـة هـانى المحملـة بالكـتب والكراسات على أرض الرصيف حتى جرى الينا ماجد ، وقد لمعت عيناه السوداوان المستديرتان بومضة حماس. قال لابنى مشيرا الى بقعة من الرصيف :

« تعال معى . وجدنا خنفساء ميتة » .

جريا معا الى نهاية الرصيف ، حيث كانت قد نزعت عن أرضه مربعات البـلاط الأصفر الذى يغطى سائر الرصيف على امتداده .

انحنى هانى ، ينظر الى الأرض باهتمام . وأقعى ماجد غير عابىء بأن سروال المدرسة الرصاصى قد يفقد تـأثير الكواء ، وقال لمصطفى الذى جـاء يتـابع الشىء بدوره .

« لابد أن نقيم جنازا » .

أقبل الأوتوبيس الأزرق تسبقه زمـارته من عند المنعطف البعيـد . جرى الأولاد يحملون حقـائبهم ، يتزاحمون على حافة الرصيف ويصطفون عند المكان الذى يصعدون منه الى باب العربة .

ذهبت الى ذلك الشىء الذى شغل اهتمام الصغار .

وجدت الخنفساء السوداء قد انقلبت ، ومضت على سيقانها تسعى . هممت ان اطأها بحذائى . سمعت نفير الاوتوبيس شغلت به والتفت نحوه . عندما نظرت الى الأرض مرة أخرى ،كانت الخنفساء قد مضت الى البالوعة مسرعة .

. . . . .

عقد ابنى الصغير يديه خلف ظهرى ، وامسك بى بشدة ، قلت له امض انت فى طريقك ، ودعنى حيث أنا . المشوار طويل ، وساقاى ماعادتا تقويان على حملى . سأحفر لنفسى حفرة هنا ، أما انت فامض . أمض . لا تنظر وراءك ، فقد تشفق على ، وترجع . لاجدوى ، سأرقد هنا ، فى هذه الخرابة . سأغوص هنا ، فى هذا الفضاء الذى لانهاية له . امض ، ودعنى ، فقد أتيت الى هنا بقدمى ، بخطاى ، وليس لك فى الأمر ذنب ولا يجب أن أحملك وزرى . ستكون المهمة عليك شاقة . كفاك ماستلقى . لن يلبث اللاشىء آن يطمرنى ، وستتسع الخرابة بى شبرا ، ولكننى سأكون فى هذه الخرابة خرابا . فلا شأن لك بى ، دعنى . فك ذراعيك من حول رقبتى . لاتلتصق بى ، فقد يزكمك عطنى ، ولا تنس أن تحمل

الى رفاقك الشباب ، فى الحوارى والدروب ، وعلى النواصى ، شيوخ المستقبل ، مرثيتى ، واشفاقى . قم . تشجع ، واجر خارجا من هذه الخرابة ، التى أكاد أحس بأنها تبتلعنى ..

. . . . .

وددت أن أرفع عن كاهلى كل هذا الأسمنت والأسفلت والعمائر التى تحتوينا . تحمينا ، وتحجب عن أنظارنا خط الأفق .

وددت أن أستغنى عن الموائد الحافلة بالفواكه الفولاذية ، وأن أكتفى بجرعة ماء من غدير ، وكسرة خبز بلون الشفق .

. . . . .

رأى على الرصيف شجرة تين مورقة ،

اقترب منها .

تأملها .

براقة ، جذابة ، هى

سأل :

ــ بكم الشتلة منها ؟

نظر اليه مستفسرا .

أوضح مرامه :

ـ أقصد ، لابد انها غالية

أجاب

ـ تستطيع ان تأخذها كلها، كما هى .

عاد يتأملها .

الطيور لا تحط عليها ، وليس من أعشاش بين أغصانها !

سأل :

ـ متى تطرح الثمر ؟

نظر اليه الآخر ، وابتسم . ثم قال :

ـ ليس هذا النوع ، ياسيدى .

أنزعج ، وسأل :

ـ بدون روح . بدن عمق ؟

قال التاجر :

ـ مثل كل شيء فى المدينة اليوم ، ياسيدى ، من البلاستيك هى .

. . . . .

أصبح لابد من البدائل ، وقد حل نتن المدينة محل عبق الحقول والجنائن . أصبح لابد من المعطرات تضخ فى أرجاء الصالات والغرف، ويدفع فيها أغلى الأثمان.

أصبحت الحياة بلا بدائل ، شيئا مقززا .

. . . . . .

طرق بابى على غير انتظار . ابتسم . اعتذر ، وأنا أشده الى الداخل مرحبا . جلسنا . قال :

« كنت أفكر فيك » .

طفرت الدموع من عينى .

قال لى :

« ما الخطب ؟ هل حدث شىء ؟ »

تمالكت نفسى . قلت له :

« لا شىء .. فقط كنت بحاجة اليك » .

وعدنا الى الحديث .

قلت له :

« هل أستطيع أن أطلب شيئا ؟ »

قال لى من كل قلبه :

« بالطبع ، لاتتردد »

قلت له :

« اذكرنى فى صلواتك » ٠

تحدثنا فى شتى الموضوعات ٠ ثم نهض للانصراف ٠

عند الباب نظر الى طويلا بعينين حالمتين وقال :

« لن أنسى ما طلبته منى » ٠

نزل السلم ٠

غابت هيئته من أمام ناظرى ٠

لم أستطع أن أغلق الباب وراءه سريعا ٠

الكرنفال

الطلب

سأل عن اجراءات استصدار الترخيص ·

لم يتلق اجابة من آحد · أولئك الذين لم يكن يعرفون لم يجد لديهم اجابة ، وأولئك الذين يعرفون احتفظوا بالاجابة لأنفسهم ·

تقدم بالطلب، وقال فيه انه لم يعش حياته ، ولهذا فانه يطلب ان يرخص له بأن يعيش الحياة مرة ثانية ·

لم يتلق ردا على طلبه ·

وحتى على فراش الموت ، راح يشكو من تأخر الرد· ولفظ آخر كلماته :

« تقدمت بطلب ·· وها هو ·· ها هو ·· ها·· ها ها ها · »

وصمت الى الأبد

حوار مع أرملة :

ـ وأولئك الذين يموتون ماذا يحدث لعظامهم ؟

ـ الذين ليس لهم أهل تباع عظامهم ، تطحن ، ويصنع منها سماد للأرض المجدبة ٠

ـ شيء غريب ٠ من الأفضل اذن ٠ أن تحرق الجثث ٠

ـ يجب أن تسقى تراب موتاك حتى تذوب رفاتهم ٠

ـ يستغلوننا أحياء وأموات ؟

ـ يبتزون أموالنا أحياء ، فاذا متنا، باعوا عظامنا!

السفر :

بكت ٠ رفعت اليه عينين مهدمتين مذعورتين ٠

قالت له :

ـ لا أعرف أين أنا ٠

ربت على كتفها ٠ جذبها برفق من يدها النحيلة الجعدة ، الى سيارة سوداء مقفلة ، كانت عند نهاية الطريق تنتظر ٠

عودة الحبيب :

سمع خطوات على عتبة السلم أقبل الى باب الشقة ٠ دق على زجاجه بيده التى تمسك حطام لعبته ٠ تهتــه متسائلا :

ــ با ٠٠ بابا ٠٠ بابا ؟!

لم يسمع الصوت المألوف الذى كان يتوقعه ٠

انتظر أن يدور المفتاح فى القفل ويدخــل حاملا الحلوى ، أو اللعب ، أو أى لفافة أخرى ٠

عاد يدق الباب من الداخل بلعبته المحطمة وينادى:

ــ بابا ٠٠ بابا ؟ بابا ؟!

لم يعد الأب ذلك المساء ولم يعد الى بيته فى الغد ، ولا بعد غد ٠

لم يعد الى ابنه أبدا ٠ فالذى لم يكن يعرفه الطفل وما كان باستطاعته أن يفهمه أن أباه مات ٠ فى حادث سيارة ، ذلك اليوم ، مات ، دقات الطفل على باب الشقة تدوى برفق متســائلة محتجة ، صــوته يثقب الليــل الطويل ٠

ــ با ٠٠ بابا ٠٠ بابا ؟

ذو المعطف الأسود :

كان مقدما على مشروعات ضخمة ٠

ذهب الى بنك الحياة ٠ سأل :

ـ كم بقى من رصيدى ؟

نظر المستخدم فى الحساب رقم ١٩٢٧/٣/٢٨ مكرر ٠ دقق النظر ٠ راجع الأرقام حتى لا يقع فى خطأ ٠ لجأ الى الحاسب الألكترونى حتى تأتى اجابته بالدقة التى توجبها سمعة البنك العتيد ٠ ثم قال له بأدب :

ـ آسف ، يا سيدى ٠ ٠ ٠

نظر اليه متسائلا ٠ أردف يقول :

ـ لا أستطيع أن أخدمك ٠

لم يقو على الاستماع الى بقية الحديث ٠ انتابه الدوار ٠ وعلى الأرض سقط ميتا ٠

الفرار :

قيل له ان الموت يبحث عنه ٠٠ فقد أزفت ساعته كما ستأزف ساعة كل حى ٠ لكن الرجل كان عنيدا ،

لا يستسلم بسهولة ، ويرفض أن ينتظر الهزيمة مكتوف اليدين • كان واسع الحيلة قادرا على المراوغة والحركة السريعة • وقد عرف عنه دواما انه يفاجىء خصمه ، ويقضى عليه فى ذات اللحظة التى يستقر فى روعه انه بمأمن •

قال الرجل « لا » وبدا العزم على قسماته • وفى صلابة حمل فى حقيبته كل ثروته • ودس دفترالشيكات فى جيبه • أبدل ملابسه ، ولجأ الى أدوات المكياج وتنكر فى هيئة مختلفة عن أصله تماما • كما وضـع عـلى عينيه نظارة سوداء وعلى رأسه قبعة ، فبدا كأنه تاجر أجنبى •

نزل السلم بخطوات واثقة • لم يعرفه البـواب ، رغم انه يسـكن العمارة منـذ عشرة أعـوام • ركب سيارة أجرة، وأمر سائقها هامسا أن يقلهالىالاسكندرية، ليستقل أول باخرة من الميناء راحلة • ووعد السائق أن يجزل له العطاء كلما ضاعف من سرعته ووصل الى المدينة قبل أن يحل المساء •

كنت الوحيد الذى كان الموت قد التقى به فىالسوق هذا الصباح • وربما كانت تجارتى هى التى سهلت لى

على الدوام مثل هذه اللقاءات · فأبناء الكار من أمثالنا تتوطد الألفة بينهم وبين المـوت حتى يصبح لأعمالنـا محورا · حياني بابتسـامة جهمة ، وكلفني أن أخبر صديقي بأنه عند الغروب سيأتى اليه · وطلب منى أن أوصيه بأن يلزم الهدوء ويستعد ·

وقد أخبرت صديقي بدافع الصداقة البحث ، حتى يتأهب للأمر · وانصرفت الى عملى الذى استغرقنى فلم أخرج الى الشارع الا فى وقت متأخر من الليل · واذا بى ألتقى بالموت ثانية · فتذكرت صديقى الداهية · وأيقنت انه أول من خدع الموت أذكى الأذكياء · فقلت ساخرا :

ـ صديقنا بالاسكندرية الآن · وانت تضيع وقتك هنا ·

فقال الموت ·

ـ حقا ؟ كنت اتساءل أين كان ذاهبا بهذه السيارة المنطلقة بسرعة جنونية ·

انتابتنى دهشة مشوبة بانقباضة ث

ـ هل التقيت به ؟!

قال ، وهو يهز رأسه :

أجل ، مسكين ·

تملكنى الخوف على صديقى ·

استطرد يقول :

ـ عيناه محملقتان ، وفمه فاغر ملتو · قسماته تنطلق بهلع كبير ودهشة مهولة ·

دق فى نظرات ثاقبة ، وأردف يقول :

ـ كان جثة هامدة · مشجوج الرأس · ملقى على الطريق الزراعى · عند بوابة المدينة ·

سرى الخــوف الى نفسى ، فكل دوره آت · نظرت اليه متسائلا ، فأجاب :

ـ مسكين ·· انقلبت به السيارة وتحطمت ··

مضى مبتعدا ، وقبل ان يغيب عن ناظرى ، التفت الى ، وأضاف :

ـ وهى تتفادى بقرة نافرة من مقود فلاح ·

الحيز :

كان المكان زخما مكدسا بالأجساد . يكاد الجميع يختنقون . جحظت العيون ، والرئات تقطعها آلام مثل مناشير حداد .

ثم سقط واحد . توقف نبضه ، ومات . ربما من الاختناق . تحلل جسده ، وصار عدما . تخفف المكان منه ، وسرت في الأرجاء ـ لأول مرة ـ نسمة ، مثل قطرة ماء على أرض عطشى .

ثم سقط ثان وثالث، وأخذ الفراغ فى المكان يتسع، ومع اتساعه ازدادت كمية الهواء . وسرت النسمات . استراحت الصدور ، وخفت الزرقة حول المآقى والشفاه والأطراف ، وتوردت بعض الخدود .

أدرك الجميع أن موت البعض يتيح للباقين استنشاق مزيد من الهواء ، فوجبت التضحيات . أقبل على الموت أمهات وآباء وجنود وكثيرون من المحبين والراغبين فى الاستشهاد . وبسقوطهم ، تحولت أجسادهم الى نسمات عطرة . وتخفف المكان ، وأصبح صالحا للاقامة والحياة .

لم يبق الحال على هذا ، فقد ترتب على تحلل بعض الجثث ان تلوث الهـواء . فليس النـاس كلهم سواء ،

ولا يستوى العطش والنقاء • وهل يتساوى الساسة مثلا بالشعراء ؟ واقتضى الأمر أن يتخذ أولو الأمر اجراءات مشددة ، ويفرضون الرقابة حتى على الموت ، فما عاد يسمح للبعض أن يموت ، فصار ذلك أقسى عقاب ينزل بالانسان • فكان من يموت ، أو بعبارة أدق ، من يسمح له أن يموت ، يهتف من قلبه وراء عظامه الواهنة ، ويقول :

ــ هاأنا فى النهاية ، لا أطمع فى شىء ، لا احتاج الى شىء ، لقد اطلقوا سراحى • أنا حر !

الزيارة :

جئت من بعيد ، حاملة اليك رسالة • أغلق فمك وانت نائم • لا تدع نفسك تنقاد للأرواح الشريرة • لا تدافع عنها • لا ترثى لها • لا تؤيدها ، أو تبدى اعجابا بها • اذا أغلقت الباب فى وجه عفريت ركبك ، فكن على حذر • لا تصغ الى الذبذبات الدنيا ، بل أرهف السمع دائما الى الذبذبات العليا • انت مهيأ لتلقى رسالة كبيرة ، وستصبح كاتبا مرموقا ، ففيك صفات الوسيط لعمل كبير •

العودة الى البيت

النسمات تهب من الميدان ، محملة برذاذ خفيف من النافورة التى تتوسطه . الخريف يسير بخطى حثيثة نحو الشتاء .

فنجال القهوة فارغ على الغطاء الأخضر .

جلس عزيز يقرأ صحيفة الأهرام .

سأله العجوز الآخر الجالس الى المنضدة قبالته :

ـ ما الأخبار اليوم ؟

ـ تعرف يا عدنان . لا أقرأ الا صفحة الوفيات .

طوى الجريدة . وضعها فى جيب معطفه الكاكى ، وأردف يقول :

ـ حتى لا يفوتنى واجب العزاء . هذه هى الأصول .

قال العجوز الثانى :

ـ كثر الحديث هذه الأيام عن عقار من نوع خاص .

زينات المولد تزهو على واجهة محل الحلوى فى الجانب المقابل من الميدان . تتقافز نداءات بائع

الصحف الأعرج • ينحنى شاب ذو لحية سوداء مدببة ، ويلتقط من على الرصيف مجلة مصورة • حروب عالمية ماضية ، حروب محلية معاصرة ، ثم حرب عالمية وشيكة الوقوع • جثث ، جرحى، أيتام ، قرى أحرقت أكواخها • وأطفال تولد فى أنابيب •

قال العجوز الأول :

ـ انه عصر الخوف •

قال العجوز الثانى :

ـ وأيضا عصر التقدم العلمى •

ـ بكم ثمن العلبة ؟

خفض العجوز الثانى صوته ، وقال :

ـ كل شىء يكتنفه الغموض •

ارتسمت الكآبة على قسمات العجوز الأول • راح ينقر على المنضدة بأصابع قلقة •

صفق العجوز الثانى ليحضر له الساقى كوبا من الماء •

سأله العجوز الأول :

ـ لكنك لم تقل لى . هل تعرف أجزخانة معينة تبيع الأقراص التى ذكرتها لى ؟

تجشأ العجوز الثانى :

ـ ليست أقراصا .

جاء الساقى بقدح من الشاى . وضعه على المنضدة وانصرف على عجل .

تبادل العجوزان النظرات .

قال الأول :

ـ تعرف . انه لا يجلب الا طلبا مدفوعا ، واما الماء فهو غير مدفوع . لذلك لا يجشم نفسه عناء احضاره .

ـ كل شىء له ثمن .

أخرج محفظته .

اشرأبت عنق العجوز الأول . ألقى نظرات متلصصة على اوراق الآخر . ليس فى المحفظة صور لأقارب أو أحباب ، بل فقط صورة كلب .

سأل مستفسرا :

ـ كلب ؟

ـ أعز رفيق فى الحياة • للأسف الكـلاب أقصر عمرا من الانسان •

تنهد :

ـ منذ سنوات مات •

ـ آه ، تبا لذلك الذى يأتى بلا ميعاد •

بعد برهة صمت ، قال :

ـ نجد مشقة بالغة فى العثور على الصنف •

ـ انت لا تفقد ذلك الشىء الهلامى •

ضحك العجوز الأول • وقال :

ـ الأمل ، تعنى ؟

ـ لا أكتم اعجابى بدأبك •

ـ ما معنى الأمل ؟

تنهد العجوز الثانى ، وقال :

ـ كل منا فى عالمه الضيق ، منطو على نفسه • يجب أن تعترف بذلك •

قاطعه الآخر :

ـ انها الأنانية ٠ اللا مشاركة ٠

ـ بـل المشاركة موجودة ٠٠ هناك امور لا يمكن لأحد تجاهلها ٠

ـ لا أفهمك ٠

ـ هذه هي النقطة ٠ انت لا تفهمني وأنا لا أفهمك ٠ عدم الفهم المتبادل يكاد يكون هو الحقيقة الوحيدة ٠

طلب الى الساقى فنجالا من القهوة ٠

أحضر له قدحا من الينسون الدافىء ٠ طلب العجوز اعادته ٠ أحضر الساقى زجاجة كوكاكولا ٠

هز رأسه معترضا ٠ حاول أن يذكره بما طلبه ٠ عاجله مستنكرا :

ـ ماذا تريد سيادتك ، بالضبط ؟

هرول الى مناضد أخرى ٠ قال العجوز :

ـ في النهاية ، لابد أن أشرب ٠ فلم تعد الكلمـة المنطوقة أداة لتوصيل رسالة ٠

شرب من الزجاجة جرعة ٠٠ تجشأ ثم سأل الآخر :

ـ لـكن قل لى . بالله عليك ، كيف يمـكننى أن

أستحوذ على حواس هذا الساقى حتى يحضر لى قدحا من القهوة ؟ أن أحمل لافتة ؟

ـ وتشرعها عندما تلمحه ٠

ـ حقا ، نحن فى عصر اللافتات ٠

تنهد ، وأردف :

ـ كيف تكون الكلمات متماسكة ازاء وجود غير متماسك ؟

ـ المشكلة هى الهوة بين الأجيال ٠ نحن جيل وهؤلاء جيل آخر ٠ واعتقد انه يلزمنا الاقتصاد الشديد فى الكلمات التى نتبادلها معهم ٠ أما فيما بيننا فليس ثمة بد من الثرثرة ٠

ـ الكلمات اذن يجب أن تكون محسوبة ٠

ـ ولحظات الصمت محسوبة أيضا ٠

تلفت حوله ٠ أخفض صوته ، ومضى قائلا :

ـ الوجود على وشك آن يندثر ٠ لم يعد ثمة ما يقال ٠ هيا بنا نتريض قليلا ، فسرعان ما سيأتى الليل ٠ لم يخيم الظلام بعد ، لكنه أصبح وشيكا ٠

نهض بتثاقل ، وهو يقول متأوها :

ـ سيقاننا تخشبت من طول الجلوس ٠

قال الآخر ، وهو ينهض بدوره :

ـ ليس ثمـة ما يكسب أو يخسر ٠ ليس ثمـة ما ينتظر ٠

جاسا بين رواد المقهى ، قاصدين باب الخروج ٠ عشرات من الشخوص التهريجية حول المناضد ، قديما كان لا يجلس فى هذا المقهى سوى علية القوم ٠ أناس وسـيمون ، أنيقو الملبس ، اعتزاز بالنفس وأنفـة ، طربوش ، منشة ، عصـا ، أما الآن فبقـايا من علب سردين ، نفايات ٠

ـ **الآن ، احتل الصعاليك محل البطل ٠**

دخـل بائع اليانصيب ٠ حاف مشـلول ، يعرض أوراق الحظ على المحظوظين ٠

على المقاعد وحول المناضـد شخصيات غارقة فى حالة من الغياب . يكتنفهم خواء مطلق ، الموتى ليسوا فحسب من طوتهم القبور ٠

وقف في أحد الأركان من يأتي آلعابا بهلوانيـة ، وفتاة تأكل النار ، ويبقى فى أمعائها الجوع • المقهى محط قطار ، موقف انتظار •

خرجا الى الشارع • المارة ذرات صغيرة ، نقاط باهتة من الألوان ، أجساد شوهاء ، ووجوه شـاحبة ، قسمات بليـدة ، نظرات زائغـة ، ومن تحت الأقنعة الملطخة وثياب المهرجين تفوح رائحة النتن ، يندفعون هاربين من واقع مضن • قامات نحيلة خشنة ، ضغطت من كل جانب حتى أوشكت ان تنسحق • تمضى بخطى واسـعة ، تريد أن تفلت من الفـراغ الذى يحوطهـا ويطبق عليها • تمضى لتتلاقى ، فلا يتم بينها ــ لسبب خفي ــ أى لقـاء حقيقي • منعزلون ، منطوون عـلى أنفسهم ، يحيطهم الغموض ، يسيرون جنبا الى جنب دون أن يتعرف أحدهم على الآخـر • مر بهمـا بائع غزل البنات •

لمعت نظـرة شـوق فى العينين المنطفئتين • قال العجوز الأول :

ــ يبدو لى كل شيء كما لو كان فى الماضى •

عمقت التجاعيد على وجنتى الآخر تحت وطأة ابتسامة :

ـ تريد أن تحيا سعادة لفظت أنفاسها ؟

عبر البائع الشارع بخطوات مسرعة ، واختفى بين جموع المارة ٠

شردت نظرات العجوز الأول بعيدا ، وقال بصوت صادر من أعماقه :

ـ يا للحسرة على أيام الهناء المندثرة ٠

ـ هل كان أحد منا يصدق أن التوقعات ستصير رمادا ؟

ـ آه ، من الأيام السعيدة ٠

ـ العالم تجتاحه المادة ٠

ـ العالم وجود أجوف ٠

تمهل ٠ جال ببصره فيمن حوله ٠ ثم أردف متنهدا :

ـ كل هذه الشخصيات والأحداث والزعيق والبريق

واللهاث ، ثم يكتشف المرء فجأة وبعد فوات الأوان أن حياته خاوية من المعنى ٠

ـ هل ينقصك اليقين ؟

ـ بل لدى كل اليقين ٠ ليست الحياة سوى مضى نحو الموت ، وتحضير له ٠ لماذا نحيا ؟

ـ بل لماذا لا نموت؟ ليس هناك سوى اجابة واحدة ٠ انت ولا شك تعرفها ٠

ـ ومن أين لى أن أعرفها ؟

ـ أبعد هذا العمر ، لا تعرفها ؟

ـ أقول لك ، لا أعرفها ٠

ـ اننا نموت لأننا لا نستحق الحياة ٠

هز الآخر كتفيه ٠

ـ ان عشنا أو متنا ، ما الجدوى ؟ سؤال أبدى ٠

ـ لو لم يكن هذا السؤال قد نبت فى أعماقى ، لو لم يبسط ظله على كل الموجودات ، لو لم يغرق فى طوفانه الشموس والكواكب ، لكنت أصبحت شخصا آخر ٠

ـ خل عنك ، ياشيخ ، ماذا كان سيتغير ؟

ـ لا أعرف . ربما كل شيء . لا أعرف بالضبط .

ـ هل تود أن تعيد الشريط ؟

ـ أن أحيا حياتي هذه من جديد ؟ كلا ، كلا ، ما عدت أريدها .

انتوى الآخر أن ينغص عليه لحظاته :

ـ وماذا بقي لك ، أيها الفتى العجوز ؟

لمعت عيناه مثل جمرة على وشك الانطفاء :

ـ أنتظر العودة الى الرحم .. دون صراخ ولا بكاء

ثم انتفض يقول :

ـ كلا ، كلا ، انى أرفض الاستسلام . يجب أن أجاهد للافلات . كما جاهدت وخرجت من الرحم .

ـ كل شيء ، يا صديقى ، خاضع لقانون الفناء الذى لا مناص منه .

ـ أنا انسان لفظه رحم . أمضى مطاردا . آلا يبدو ذلك ظلما صارخا . أنت عملت فى المحاكم أكثر من ثلاثين عاما ، فما قولك ؟

باضطراب يمضى محتجا :

ــ بأى حق يسخر منا ؟ ما هذه اللعبة • لعبة الدمى التى تحركها خيوط ؟

ــ يبدو العالم جائرا قاسيا معاديا •

خفض صوته ، وجال ببصره فيما حوله متوجسا :

ــ ثمة قاتل يختبىء دائما وراء الأسوار ، بل وراء الظهور •

صوب اليه اصبع الاتهام :

ــ انت نفسك **قاتل** •

قال الآخر مستنكرا :

ــ تهيننى وقد جئت اليك زائرا ؟

ــ هون عليك ، كلنا قتلة • الوجود جريمة محكمة •

سارا متجاورين ، ينظران فيما حولهما •

برهة صمت •

قال العجوز الأول :

ــ كانت الطبيعة فيما مضى خيرة ورؤوما • تصور كنت أشترى دستة البيض بقرشين ؟

ــ العالم اليوم بيداء جرداء • الحياة وصلت بنا
الى نهايتها •

ــ بالعكس ، العالم تتكاثر فيه الأشياء وتتكاثف •
هل رأيت أجهزة التليفزيون عندما تخرج من المصنع ،
وزجاجات المياه الغازية عندما تعبأ ؟ آلاف العلب
والزجاجات تنزلق الواحدة في اثر الأخرى الى المستهلك •
رأيتها عندما ذهبت لزيارة ابن آختى الباشمهندس
بمصنع المياه الغازية •• عالم يختنق فيه المرء ، ويسحق
تحت ثقل المادة •

ــ اذن ، ماذا حدث ؟ ما عادت الدنيا بخير ؟ أم
ماذا ؟ ربما الخلل فينا نحن ؟

خيمت برهة صمت ، وسرحت آبصارهما فى
تأملات بعيدة •

طرقع العجوز الأول آصابعه • ثم توقف ، وتمطى ،
قائلا :

ــ كل منا يتخبط فى شبكة من الأوهام والمظاهر
الكاذبة •

وضع الآخر يديه فى جيبه ، وتطلع من حوله • ثم قال :

ـ ياله من مساء جميل • احب امسيات المدينة • المدينــة هى المكان الذى يموت فيه العجــائز فى سن متأخرة •

رأى شرطى المرور يرفع يــده يغلق الاشــارة ، ويصفر ، استدرك قائلا :

ـ الا من يدوسهم الترام ، أو اولئك الذين يصابون بالصمم فلا ينتبهون للكلاكسات •

سأل الثانى :

ـ والقرية ؟

لا اجابة •

ـ والجبل ؟

لا أجابة •

ـ والصحراء ؟

أجاب الأول :

ـ على الأقل ، هناك لا تتوقع شـيئا من أحـد ، فلا تكون متعلقا بأمل •

ـ يا له من يوم جميـل عـلى آى حـال • اعطنى سيجارة •

ـ ليس معى •

الثانى محتدا :

ـ قلت لك أعطنى سيجارة •

ـ أنت تعرفاننى لا أدخن •

ـ دعك من المراوغة والا اضطررتنى الى •••

قاطعه الأول محتدا :

ـ نتخاصم دوما على أشياء تافهة •

أخرج من جيب صدريته عليه سجائر ، ثم أردف قائلا :

ـ انت غير قادر على التلاقى بالآخرين ، والدخول معهم فى حوار بناء •

تناول العجوز الثاني سيجارة • لم يشعلها • قال :

ـ ياله من مساء جميل ، على أى حال •

فتح الشرطى الاشارة ٠

عبر الطريق من الرصيف الآخر رجل مهيب يرتدى معطفا أسود ، وقد رفع ياقته ٠

تسمر العجوزان فى مكانيهما لمرآه مقبلا نحوهما٠ تقلصت أصابع عدنان على ذراع عزيز ٠ جحظت عيناهما ، وهما يتابعان الرجل ذا المعطف الاسود ٠ لم ينبسا بكلمة ، لكن الصمت كان أبلغ فى الدلالة عن كل قول ٠ تجاوزهما الرجل ، ثم استدار عند مفرق الطريق ، واختفى ٠

تنفس العجوزان الصعداء ٠ خفت قبضة عدنان٠ تمتم :

ـ حمدا ٠ ابتعد ٠ لم يحن الوقت بعد ٠

التفت عزيز الى عدنان بنظرات مفعمة بالهم ٠ قال :

ـ لكنه سيحين ٠ أليس كذلك ؟

ألقى السيجارة على الأرض ٠

ـ ما عدت أرغب فى شىء ٠

انحنى العجوز الأول ، التقطهـا ودسها فى علبته • ثم قال له :

ـ ومادام سيئتين، فالأفضل آن نطرده، عن خواطرنا، الآن •

تنهد ، وشخصت نظراته الى بعيد ، ثم قال :

ـ فى شبابى كنت أغرق نفسى فى الشراب عندما يقبل الليل ، حتى آطرد من مخيلتى مرآه ، فأنام • كان يجب على فى تلك الأيام آن آصحو مبكرا ، وأتسلق الترام الى « الصينية » وألحق بالشركة قبل أن تغلق الباب ، فيضيع على أجر اليوم •

ـ كنت فى تلك الأيام طموحا ، لأنك كنت فقيرا •

ـ لازلت ، لكنى فقدت الطموح

ـ ليس الطموح فحسب الذى فقدناه •

ـ فقدنا الطموح ، ولم نحصل مع ذلك على راحة البال •

ـ راحة البال من المحال •

تطلـع عدنان الى ما حـوله من لافتات النيون ، وتنفس الصعداء من جديد :

ـ عندما يمضى لحال سبيله تضاء الأنوار •

تلكأ عند أحد أعمدة النور ·

قال عدنان :

ـ أنا عائد الى المقهى · لايمكن ان أفكر الا فى أن أحيا ·

استدار ·

هرول العجوز الثانى فى أعقابه قائلا :

ـ قادم معك · لا أستطيع أن أتركك · الانسان يبحث عن الانسان ·

ـ ولماذا لا تعود الى البيت ؟

ـ حقا ، اعيش مع ابنى مراد · زوجته امرأة طيبة ، وأولادهما أحبهم كثيرا · أشقياء عفاريت ، وانت تعرف كم نحتاج الى الهدوء عندما نكبر فى السن·

تنهد وقال :

ـ لا يستطيع أحد أن يفهمنى حق الفهم ·

ـ أنا أفهمك بالطبع ، لأنك مثلى ·

ـ الأولاد يريدون منى أن ألعب معهم ألعابهم العنيفة · مفاصلى لا تقوى ·

اتكأ عزيز الى عامود النور ·

ــ والأهم من ذلك كلــه ، الشيء الــذى لايقــال باللسان ، ولكنه يلمع فى العيون ٠

ــ كأنه رغبة محرمة ٠

ــ رغبــة موجودة ، تتوارى فى الصمت ، لكنهــا موجــودة ٠ البيت بدأ يضيق بنــا ٠ الأولاد كبروا ٠ هم بحاجة الى غرفة ، وغرفتى هى محط الانظار ٠ يعدون الخطط لترتيبها غرفة للأولاد مستقبــلا ٠ تفهم مــاذا يعنى « مستقبلا » ٠

ــ تعبير مهذب ، والاحرى آن يقال « بعد موتك » لكن الأخلاق والقانون والدين ، كل هذا ، يفعل مفعوله ٠

ــ أجل ، لكننى أشعر حقــا بأننى أصبحت ثقيلا عليهم ، وأن وجودى معهم ، بل وفى الحيــاة كلهــا ، عبء لا مبرر له ٠

نظر وراءه ٠ ثم أردف قائلا :

ــ ذلك الذى مر بنا منذ هنيهة ، لايحسن التوقيت ، بعد وفاة زوجتى ، ما الذى جعله يتركنى ؛ بعــد أن فارقتنى رفيقة الحياة وتركتنى ؟

ــ نظل فى هذه الدنيا بين غرباء متأدبين نتخبط ٠

ــ حجرتى بانتظارى ، أجل . لكن عندما أدخلها وأرقد على فراشى أحس اننى اتقلب على الشوك . أحس انه ليس لى الحق فى هذا الحيز . هناك بين الأحياء من هو أحق به منى . لكن ماذا أفعل ؟ انى للأسف أحيا ، وعلى الموت لا أقوى . حقا ، المقهى عزاء ، ولكن الى متى؟ العودة الى البيت ضرورة ، والرقاد فى الفراش حاجة ملحة .

خيم صمت ثقيل . قطعه العجوز الثانى بصـوته الأجش قائلا :

ــ كأنك تتحدث بلسانى . عندما أعلن فى البيت رغبتى أن أتركهم الى بنسيون أو لـوكاندة أو ملجـأ للعجزة يعتبرون ذلك عيبا . ماذا سيقول الناس ؟ كيف أترك أولادى ؟ أو كيف يتركنى أولادى أذهب الى دار للمسنين ؟ وهكذا باسم الأخلاق والدين والتقاليد يعلق الطوق الثقيل فى أعناقنا مرة أخرى .

ــ يجب أن يدركنا الموت حيثما نحن .

ــ الكثيرون حولى ، لـكنى لا أستطيع أن أغالب احساسا بالوحدة .

علق عزيز على ذلك بمرارة :

ـ نحن على آى حـال أحسن حالا من أجـدادنا ٠ تعرف ماذا كان يحـدث للملك اذا دبت فى أوصـاله الشيخوخة ؟ لا تدعنى أحكى ما لا أستحب ٠

ـ أتدرى ، ياعزيز ، ماذا فعل صيـاد سمك من صقلية ؟ اسمع أيها الفتى : لأن الموت يمكن أن يأتى فى أية لحظة ، رأى الصياد أن الأفضل أن يكون مستعـدا للموت ٠ لذلك صنع لنفسـه تابوتا على مقاسه وقال النجار انه كان كما لو كان يشترى حلة جديدة ، وقال عنه الصياد لجيرانه انه اكثر راحة من السرير ٠

قال عزيز :

ـ عنـدما أقرأ ان علمـاء الشيخوخة أمكنهم أن يضيفوا ربع أو ثلث قرن الى عمر الانسان ، أتعذب ٠ لماذا لا يتركوننا نمضى فى هدوء ؟

ـ أتعرف يـاعزيز ؟ على الرغم من كـل الحـزن المنبسط على الوجود ، فثمة أمل يولد دائما فى القلوب ٠

ـ أجل ٠ أعرف هذا الأمـل ، مقعد نريح عليه عظامنا من وعثائها ٠

تأبط كل منها ذراع الآخر ، وقال عدنان ضاحكا :

ـ الى المقهى ، فمنه أتينا واليه نعود ٠

نواح من أعماق بئر

سوف يسدل النسيان ، ويمضى كل منكم الى سبيله ، ولكن بين الحين والحين ستند من الشفاة تنهيدة ، أو ربما أطلق شهقة من خشى أن تتكرر فى حلقه مأساتى، فالحفرة التى ترديت فيها ، كما اتسعت لى ، قد تتسع لكم . لذلك ، قبل أن تغوصوا اسألوا .

عندما انتقل الخبر الى سكان الحى ، انتابهم الذعر، وخرج كل منهم للتأكد من أن ابنته ليست الضحية . أسرعت الجدة أم السعد على الصراخ الى عتبة دارها . لم تجد حفيدتها ، التى ألفت أن تتسلل الى حديقة الشلالات مع حنورة العجلاتى . فراحت العجوز تصرخ بصوت مشروخ وتقول « منذ دقيقة ، كانت تقف عند باب المطبخ ، ثم اختفت ، أين انت يا حفيدتى ؟ أين انت ، ياحلوة ؟ » لابد ان بطنها الآن انتفخت .

أساتذة الهندسة قالوا الماسورة أكلها الصدأ . مدفونة هى فى التراب منذ سنين ، على نحو لا يسمح بالكشف عليها .

أرفع النظارة السوداء من على عينيك ، ياسامعى ، كى ترى • لاتيأس • دع عنك هذا الذهول ، واجلس فكر • هل تحولت العروس الى ذرات تطايرت ، وفى الهواء تلاشت؟ قليل من الماء تحت الرصيف أمامالسينما وبلاط الرصيف نظيف • ليس عليه من المياه شبر • الأرض انفتحت فجأة • وغاصت قسمت فى الفتحة • الفتحة مضت تتسع ، ويتدفق الماء منها • سمع عسكرى المرور فى الجانب المقابل صوتا يقول « ادركونى » والناس تجمعت • « ماذا حدث ، ياأفندى » ؟ « وقعت منى فى الأرض المفتوحة » « اذن نتصل بالمطافىء والنجدة » حملوه الى بيت أخته • ثم عاد فى الفجر الى مكان الحادث ، فوجد الناس تبحث عن زوجته فى الحفرة • ولما عرف أنهم لم يعثروا عليها ، أغمى عليه، فنقلوه الى المستشفى •

كلما زادت الحفريات عمقا زاد السر غموضا• أين قسمت ؟ من الذى يحتفظ بسرها ؟ حافى القدمين على الدوام • يضيق بالاحذية • يتلفت يمينا ويسارا • بالاشارات كان يتكلم • ربما اخطأنا فهم ما يقصد • عصبى ، مغرم بالسينما • يحب توفيق الدقن ، جاء يشاهد نجمة ابراهيم فى « ريا وسكينة » خرج فى

الاستراحة يأكل سندويتش فول بالشطـة • الدكتور منعه من الشطة ، لكنه لايستطيع ان يقاوم اغراءها • رأى سيارة رمادية تقبل • اقتربت من سيدة بدينة ، تلبس معطفا أحمر ، نزل راكبـان • وضعا على فمها منديلا ، ودفعاها الي داخل العربة • رغم العتمة كانت الرؤية ممكنة - الافنـدى الذى يرافق السيدة يمشي وراءها بخطوتين • وقف يتابع السيدة البدينة ، وهي تحشر فى العربة • وقف يرتعد خوفا ، قال لنفسه سوف يقتلوننى • رمي السندويتش ، وجرى • بعد قليـل سمع الناس تتصايح وتقول « وقعت هنا » حـاول أن يشرح ما رآه • لا أحد وقع في الحفرة • الأرض راسخة كالطود• لو كانت رخوة، تغمرها المياه، لأحضر سنارة، واصطاد سمكا •• هو سماك وليس زبالا • قال « رأيت الأفنـدى يصرخ ويقـول هنا •• هنا • » ثم جاءت المطافيء « تلم ، تلم ! » حرروا محضرا • استمعوا فيه لأقوال كثيرة ، أما هو فلم يكترث أحد بأن يفهم اشاراته • لماذا كان هو ، الأخرس ، الذى يحب الشطة ، ويهـوى أفلام الدقن ، شاهد العيان الأوحد ؟

صرخت الأم « بنتى على وجه الأرض تعيش » سألوا الجيران • قالت حميـدة زوجـة مأمور الجمرك شعبان

المجدوب « كانت دائبة الابتسام · ومستقرة فى عواطفها · » وتحفظت « كانت تخيم على نظراتها فى بعض الأحيان سحابة حزن » وقالت جارة أمها الحاجة سنية « هى أكبر أخواتها ، وتتمتع بالحب » ثم تحفظت بدورها « زواجها بمسعد أفندى لم يكن يرضى طرفا ثالثا » اذن كان هناك طرف ثالث « من هو؟ » لجلجة · لعثمة ، ولا شىء · طلقات تدوى ولا تصيب · وقالت خضرة المكباتى « فى صباح ذلك اليوم فتحت الباب كى أنفض السجادة على عتبة السلم · رأيتها تحادث رجلا غريبا ، وقد واربت الباب · وعندما ذهبت بعد قليل الى الشرفة أنشر الغسيل لمحت الرجل ذا الشعر الأحمر يركب سيارة عليها أرقاما أجنبية · » وقالت زبيدة ساكنة الدور الأرضى « رأيت فى الفجر قطا نازلا السلم» تلفتت فيما حولها ، وأردفت تقول « قد يكون مسخوطا · نحن فى الصعيد نذبحه ، ونطعم من لحمه مريضنا الذى لا أمل فى شفائه » هناك استحالة فى سقوط الجثة · « قسمت محبوسة فى قصر النمرود » قسمت اسدل الستار عليها فى الحفرة « بنتى مخطوفة · وليست مدفونة فى الحفرة » لم يعد هناك أدنى أمل فى العثور عليها حية · حفظت الأوراق · هذا قرار قطعى ·

وهل نمضى وراء جثـة راحت مع التيار فى مغـارات وقنوات سفلية ؟

من سراديب مجهولة ، بالمياه والطين مغمورة ، هل تسمعوننى ؟ «الخرس لا يكذبون . مايرونه يقولونه». لا أريد أن أتحلل ، وأصير حفنة من رماد . اصرخى ، يا أماه فى وجوههم ، فالحـرج فى قلبك انت أعمق ، والدموع فى عينيك لا تنضب . فى أحضانك أريد أن استقر برهة بالعمر كله . أسمع صوتك عند كل طرقة يتهلل « قسمت عادت ! » تحملقين الى الباب ، وتنتظرين أن أصعد الدرجات ، وألقى بنفسى بين ذراعيك البضتين الدافئتين الحانيتين . لكن هذا الأمل فى قلبك لا يلبث أن يموت ساعة ولادته . ان وقع الأقدام التى سمعتها لم تكن وقـع أقدامى ، والضحكات والهمهمات لم تكن ضحكاتى ولا همهماتى . آلازالت صورة زفافى معلقة فى غرفتك ، يا أماه ؟ انت وحـدك كنت تعـرفين سر تعاستى، كعروس وكامرأة. عيناى آنا بأهداب طويلة. ولكن نظراتى يجب أن تظل خفيضـة . ألازم البيت ، ولا أعود أفكر فى زميلى القديم بالكليـة . أتذكرين ليلة فرحى ؟ لم تكن طرحتى بيضـاء ، بل بنفسجية .

انت وحـدك تفهمين · أكره فى أبى كثرة كلامه عن الجنيه · « هذا بكذا جنيه » و « هـذا يحتاج الى كذا جنيه » و « هذا يتكلف كذا جنيه » كفى ، يا أبى كلاما عن الفلوس · منذ أن كبرت ، أصبحت همك الثقيل · فارس أحلامى كنت أريده انسانا · ليس مهما أن يكون وسـيما ولا غنيـا ، ولا أنيقا ، يكفى أن أحس انه « شايلنى فى جفونه » · آماه ـ لا تغضبى من سؤالى ـ هل صرفتم بوليصـة التأمين ؟ لو تعرفين يا أمى كـم أحبك ، لاستراح قلبك قليلا · لو مت يا أمى ـ وهذا مجرد افتراض ـ هل تحزنين ؟ سرى كله فى بئرك · كراستى الحمراء احرقيها · هذا أفضل · عندما نعشق ماذا يعترينـا ؟ ما الذى يحدث فى داخلنـا ؟ ما الذى ينكسر فينا ؟ كيف تغدو قطرة الماء محيطا ؟ ما هـذا الهرج الذى يسود شقتنا ؟ وهذا الصبى الصغير الذى لم يستحم منذ سنة ، ماذا يبغى ؟

قال بصـوت مبحـوح « الأخرس جاء » · ماتت ؟ يا خبر اسود ! كيف تموت ؟ تضيع منى بين يوم وليلة؟ بعد أن ربيتها ، وسـهرت الليـالى عليها ، بين ذراعى حملتها وزوجتها ثم تمـوت ؟ قدرتك ، يارب · لمـاذا تأخذها قبل أن تأخذنى ؟ ·

وتبكين كنت تريدين أن تسبقيني الى هنا، يا أماه ؟
نحن نعيش مثلكم · حجرات فوق حجرات · حجرات لصق حجرات · وهنا أيضا لصوص كما عندكم · أسلى نفسى طوال النهار ، فأطرق الابواب · وكم منها أبواب وهمية · يتسلل من الشقوق ضـوء باهت · من أين يأتى ؟ أهرع الى المقصورة · أطل منها · أتوق أن أرى بالليل النجوم الفضية تنير وحشتى ، يسألنى التمثـال الرخامى « ما الذى يؤرقك ؟! » ويقول « اهدئى ، فكل شىء هنا أبدى » · ولكننى لا أهدأ · أهجم على التمثال أنزع ما عليه من مجوهرات . وأكومهـا فى حجـرى ، فلا زلت آمل أن أصعد اليكم ، وأتحرق أن أصعد واسعة الثراء · هل فيكم من يكتم السر ؟ أعرف · قد يقـول « السر فى بئر » ثم يتسلل بالليل · وينزل ، ليظفر · واننى من الآن أحذره ، فقد لا يخرج من هنا مثلى · أتعـرفون ما السر ، سر الأسرار ؟ السر وراء صرخة الوليد عندما ينزل من رحم أمه الى غرفة الدفن الكبيرة، الحياة ؟ فى أى لحظة قد تنفتح تحت قدميك حفرة تهوى اليها وتختفى ، وكأنك لم توجد ، لم تكن لك أيام من الشقاء وأخرى من البهجة · وبعد أن كانت لك ذكريات أصبحت انت ذكرى · الحياة على الدوام تهديد ، فانت

في مدينة دأبها ابتلاع البشر . القتـل اثارة ، طارد للسأم ، مجدد للقوى ، معدل للمراكز ، ترياق ، كي لا تقتل تقتل . الكل قلق ، يذكر الرعب الذى ارتسم في عيني ضحيته لحظة آن تمكن منها وقتلها وقتله . بدهائك عليك أن تبقى . واذا اختفيت ، فتوار بشكل محير . عينـــان في الظلام محـدقتان ، أعـرف ، هى لا تسمعنى . تحدق في الظلمة ، ولا تسمعنى . تجلس متربعة . تمسك بالأفعى . تلثمها في ثغرها . تطلقها . حتى على أخيها تطلقها . تمضى الأفعى تسمى . ثم بعد ذلك تنطلق صرخة . ويعود الصمت يبتلع الأخ والأخت والأفعى . مهلا . أسمع من حولى طبلا . لقد جئن في أيديهن صاجات وبنادير . أتلقى دون أن أشعر بالخجل قبلات على مواضع من جسمى . يطلبن منى آن أشرب من طبق الدم . أركع منكسة الرأس . يلبسنى سيدى ومولاى الذى أحضرتنى . لا أراه ، لكننى أحس به نارا في جسمى . سيدى خطفنى . اصطفانى . نادانى ، فجئت اليه طائعة . سحبنى الى الداخل فاستسلمت . كان يتعجلنى . لم ينتظر عودتى الى البيت . من الشارع جرجرنى « سلام ، سلام . عافيه وبرهان . أفرح بالدم يا نمرود . العب بالدم يا نمرود » هل كان حقا ذلك

الذى خطفنى وأتى بى الى هنا جنا ؟ فلأضحك . هل
تستكثرون على الضحك ، وأنا فى هذه الحال التى
وصلت اليها ؟ تسألون أين ذهبت ؟ تريدون حقا أن
تعرفوا ؟ الجان خطفنى ؟ وددت ذلك . فهو أرق عاطفة
منكم . لا أقدر أن أفتح فمى بكلمة . أشم شموعا كثيرة
تحترق من حولى . كان يحب أن يغرس أصابعه فى لحمى ،
ويسمعنى أصرخ من آلمى . هل أحد يصغى الى ؟ فى
أبى قير التقيت به أول مرة . الموت غريب . ملتصق
بالجلد . يروح معاك ويغدو . انه لا يأتى اليك . انه
رابض بداخلك . جاثم على كاهلك . هل يصلكم نواحى
وأنينى ؟ ربما جرفت الى حيث لا أدرى . مع أبى ، اتفق
على المهر والشبكة . كل الاجـراءات تمت بسرعة .
وقبل شرطه الأوحد . أن ألزم البيت وأترك الكلية .
أجل، انت أبلغت عن اختفائى . مسكين . بكيت وولولت
تقول «امرأتى وقعت فى الحفرة . هنا» كنا نسير وحدنا .
وثمة اناس ـ لم يحن بعد حينهم ـ سائرون فى طريقهم
من حولنا . جلبوا ألواحا خشبية . أنزلوها فى الحفرة ،
وراحوا دون جدوى ينادون وفى النهاية قال بعضهم :
« انها ارادة الله » انى أشك فيك ، فى كلام الحب كله
الذى أسمعتنيه فى لياليك ، فى كل شىء أشك . هل

وراء الأمر لغز ؟ روح شريرة ، زوبعة ، شبشبة ، سحر؟ ما أسباب انفجار الماسورة ؟ تســألون عن الأســباب ؟ تسألون يا ظلمة ، عما اذا كان ذلك يرجع الى اهمال ؟ أيها الناس القساة ، الرحمة ، ابحثوا عنى ، لا فى هذه الخرائب المطمورة ، بل فى عطن قلوبكم ، سوف أظل ألطخ ضمائركم ، الى أن تظهر جثتى • أنصتوا الى من فضلكم • أعيرونى اهتمامكم ، فأنا لكل رجل وامرأة الزوجة والأخت والابنة • تابعوا التحريات عن المختفية • لماذا تشيحون بوجوهكم عنى ، وعلى شاشات التليفزيون تسمرون عيــونكم ، والى اعلانات الحلــوى والعطــور ومزيلات العرق ينصرف اهتمامكم ؟ نقبوا فى خرائب صدوركم ، ستجدون أكثر من ماسورة مكسورة • عدت أو لم أعد ، لا تقفلوا ملفى • واصلوا التنقيب ، فقد تجدون بعضا من بقاياى • أشارب ، حقيبة يد، حذاء ، سوار ، مثلا •

من قال اننا توقفنا ؟ أطلق معاون المباحث الكلب البوليسى — بعد أن شم ملابس قسمت — يتجــول فى شوارع المدينة ، واذا به ينقض على شرقاوى ســائق التاكسى يكاد يمزق جلبابه • ويصرخ شرقاوى ويقول « أنا لا أعرف عنها شيئا » •• ثم — وهــذا أكثر بلبلة

للأفئدة ـ وردت رسالة بدون توقيع مكتوبة بالحبر الأحمر ، تروى حكاية غريبة ـ ترى من أرسلها ؟ ـ قسمت هربت مع شاب سيطر عليها ، وهى كالمنومة مغناطيسيا • لا داعى للبحث عنها ، فقد تم العثور عليها •

انى أجلس على مصطبتى الحجرية • أطوح ساقى العاريتين الى الأمام والى الخلف، وأنتظر • ترى، من كان يسكن قصر التيه هذا قبلى ؟ أين انت يا أبى ، حقا ؟ لو كنت انت مكانى ، هنا ، لكنت بما حولك أكثر فرحا • يكفى أن تلمس أصابعك ما حلمت به طوال عمرك الفقير ولم يتحقق • الذهب، أطنان من الذهب • ترى، من الراقد عند نهاية بهو الأعمدة ، الذى تفد منه نسمات تحمل رائحة البحر البعيد ؟ من الذى يبكى هناك ألما ثم يعود فيضحك فجأة ؟ الأخرس دخلت فى قدمه شوكة ؟ وما ذلك الطيف الأبيض ذو العينين اللامعتين ، كأنه من تل خفى أو سلم لا يتبين درجاته الا وهو ينزل ؟ صامت كالليل ، ساكن الخطى مثل الموت ، متلصص مثل السم ، متربص منقض مثل القدر • ينظر اليك بعينى محقق تتسلل أسئلته الى أعماقك فتزلزلها ؟ الفجوة التى سقطت فيها تكونت من اختلاط المياه بالتربة ، مما أدى

الى انحسار الماسورة ، فانفصلت . حسنا ، يا أعضاء اللجنة فليكن، أنا جئت الى هنا بهذهالطريقة ، أفلا توجد اذن طريقة اخرج بها ؟ تقولون يلزم كشف مساحات كبيرة ، والنزول الى أعماق تهدد سلامة المنشئات المجاورة ، للعثور على الجثة ، ان كان في الأعماق جثة ؟ أجل . هكذا يطلقون على . ولم لا ؟ كنت على الدوام جثة ، حتى وأنا أحيا، وأغرى الرجال باستدارات جسدى . للأسف ، ما كان سيكون تقرير اللجنة على هذا النحو ، لو كانت الجثة لابنة عضو من أعضائها ، أو لابنة رجل يهمهم أمره ، أو يخشون سلطانه . ولكن أنتم ، يا أعضاء اللجنة اذن تشكون بدوركم فيما اذا كان هناك في الأعماق جثة ؟ اعثروا أيها الناس الطيبون على شيء ، ولو صغير يدل على . لا تتركوني أطمر . أتسمعون ؟ افرزوا بأنفسكم كل مقطف تراب يرفع من الحفرة ، فربما عثرتم على ما يقود الى سرى . لا تقولوا حكاية بسيطة مجرد سيدة وقعت في حفرة . توجهوا الى الموقع فورا ، وعاودوا الحفر . لا تصدقوا من يقول لكم « لا توجد جثة » أحضروا معدات ، كشافات ، حفارات ، راصدات .. وسعوا الحفرة . راعوا اتجاه المياه المتسربة . سوف يقودكم ذلك الى مسار الجثة . واذا

ما وصلتم تشمموا وجـودى ، وانطلقوا فى أثرى . لا تقولوا عملنــا كل ما فى وسعنا . أين ذهبت الجثة ؟ أين ذهبت أنا ؟ تريدون أن تعرفوا حقا ؟ لا أصــدق انكم تريدون، فليس بامكان عميان البصيرة أن يصمدوا للبحث عن عذابات الآخرين طويلا . انتم تريدون أن يهــال التراب عـلى كل شىء ، وبسرعة . لا ترحبــون بالحفر لأعماق كبيرة . فهذا يهدد وجودكم الخامل ذاته بالخطر . مباراة الزمالك والأهلى ستبدأ بعد لحظات ، وستذاع على الشاشات ، وأنتم متشوقون لمعرفة من يظفر بالكأس . كل الجهـد لم يبذل بعد . لا أحد منكم يجزم أين أنا . لا أريدكم أن تقفلوا ملفى . لا تقولوا انتهى كل شىء ، فلا شىء ينتهى . الموت ينبثق كل يـوم من تحت أقدامكم . واصلوا البحث . استأنفوا التحقيق . وليبق السؤال ممضــا حارقا فى ضــمائركم ، مثــل حامض منسكب على معدن يهريه . هــل تظنــون اننى مت ؟ هكذا بكل بساطة انتهيت ؟ اننى هناك . بل اننى هنا . فى مجاريكم سيتربى مخلوق عطن ، لزج هلامى . سوف ينمو ويتكاثر . وسوف يستعصى على كل تطهير . سوف يصعد ، ويصعد ، ويتسلل الى مخادعكم . واذا ما طبع على جباهكم قبلته ، فهى ادانة دامغــة . كلكم

باهمالكم وتهاونكم مسـوخ أشـقياء . لن أقول لـكم خذوا بثأرى . فقد ولى عهد الثأر وراح . ولكن انتبهوا لأنفسكم ، حتى لا يتكرر فى هـدوء الليـل من أعماق البئر نواح . سوف ينبعث أنين ، صوت خافت . سوف تدب على أسفلت الطريق خطوات بلا صوت ، وسـوف ترهب قلوبكم وقعهـا . سـتدركون فى أعمـاقكم من صاحب الخطوات ، دون أن تحددوا انه أنا . سـوف يكون انت . سوف يكون هو أو هى . وسـوف يكون فى النهـاية نحن . سـلام ، عـلى قتلى الاهمال فى مدائنكم . أسـمعك يا أماه تنادين باكيـة ، ولـكن الأمل لازال يداعبك فتقولين : « احضروا الى ابنتى » لا تردموا كل حفرة غائرة فى قلوبكم . اشعروا جيدا بمأساتى ، بمأساة كل غائب ، كل من خرج من البيت ولم يعد . السراديب لم تبتلع قسمت ، أو كوثر ، أو شريفة . ولـكن هنـاك سراديب أخـرى . فى القلب سراديب . فى الجسم سراديب . لو رقد الموضوع فى ادراج النسيان شهورا عودوا الى اثارته . ابقروا بطن هذا الصمت المتضخم كالجثـة . المهم أن تعثروا عـلى الحقيقـة . لا تقتصروا عـلى الثرثرة . انبشـوا الجراح القديمة . أيقظـوا كل حادث نام . سـلطوا

أضواءكم ، علكم تكشفوا عن الخفايا . آمنوا بالمنطق ، ولا يخدعنكم السراب . لا تقــولوا باستســلام « ماذا نفعل ؟ انها ارادة الله » فان الله نفسه لا يريد منكم أن تتصرفوا هكذا فى شــئون عباده . ولا أن تستروا تخاذلكم وسلبيتكم وراء اسمه الكريم وارادته الجليلة . انضموا على الدوام الى طــوابير الحــزانى . ارفعــوا صلواتكم فى المتاهات والظلمات . امسكوا القناديل وسيروا . نقبوا فى الأركان والزوايا ، ولا تكونوا مثل المرائين ، يفتشون فى الميادين والســاحات المضيئة . ويقولون « ماذا تريدوننا أن نفعل ؟ فتشنا ولم نجد . سلطوا الأضواء علينا ، فنحن نحب الشهرة » يحبــون الظهــور ، حتى عــلى حســاب من ابتلعتهم الظلمة . لا تقولوا « ليس هذا من شأنى . ليست هذه وظيفتى » لا تقولوا « الاعتمادات قد نفدت » اصرخوا فى الليالى متحدين الجن . اسألوا الأرواح والشياطين . طالبوها جميعا بأن تبحث معكم عن كل حقيقة ضائعة ، عن كل حقيقة مطموسة . ولينتشلنى كل منكم من بئر .

تبتعد الحقيقة . الحقيقة تبتعد . الحقيقة تبتعد .

الفهرس

الصفحة

صدر من هذه السلسلة :

العنوان	النوع	المؤلف	الرقم
● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطى ابو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م. شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● أربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● أنا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(أقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨

● تسلق الجدار الاملس	(قصص)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠
● رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح	٣٢
● أرض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب	٣٣
● الخسوف	(رواية)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما اجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد	٣٦
● حبال السام	(قصص)	فاروق خورشيد	٣٧
● الخنان الصيفى	(قصص)	احمد الشيخ	٣٨
● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصلان	٣٩
● مسالة لبنى	(مسرحية)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
● هـــل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٢
● الطائر والنهر	(قصص)	عائد خصباك	٤٤
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب	٤٥
● الطواحين	(قصص)	امين ريان	٤٦
● رائحة البحر	(رواية)	سامى فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(قصص)	عاطف الغمرى	٤٨
● أسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥١
● أيام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥٢
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الأخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصص)	طلعت فهمى	٥٥
● انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
● اخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الأسوانى	٥٧
● النيل والغضب	(قصص)	فتحى عبد الفتاح	٥٨
● الشيء	(رواية)	نهاد شريف	٥٩
● تورسان ابيضان	(قصص)	نعيم عطية	٦٠

العدد القادم :

● الغيوم ومنابت الشجر	(رواية)	عبد العزيز مشرى

في أعدادنا القادمة

● الصخرة والطوف	(مسرحيات)	فؤاد التكرلي
● الوجه الآخر للقمر	(قصص)	محمد سليمان
● دورة سفر	(قصص)	محمد المخزنجي
● ستر العورة	(قصص)	سعيد الكفراوى
● رجال من الرف العالي	(قصص)	سليمان الشطي
● رايت النخل	(قصص)	رضوى عاشور
● السلحفاة	(قصص)	حسونة المصباحي
● المستقبل والقيمة	(تجربة في الديالكتيك)	بدر الديب
● عيون الحب	(قصص)	علي خيون
● النعيم النائم	(مسرحية)	توفيق الحكيم
● مؤامرة البحر	(قصص)	اسماعيل العاقل
● ساعات الكبرياء	(قصص)	ادوار الخراط
● تلك الأشياء	(قصص)	سامي فريد
● احتمالات	(قصص)	محمود جنداري

الأعداد الممتازة القادمة

● المعذبون في الأرض	(رواية)	طه حسين
● قنطرة الذى كفر	(رواية)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازني
● ابراهيم الثاني	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازني
● نائب عزرائيل	(رواية)	يوسف السباعي
● فساد الأمكنة	(رواية)	صبري موسى
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف ادريس
● الجبل	(رواية)	فتحي غانم
● قصص مختارة	(قصص)	يوسف الشاروني
● أغنية الرياح الأربع	(دراما شعرية)	علي محمود طه
● بحيرة المساء	(قصص)	ابراهيم اصلان

تطلب كتب هذه السلسلة من

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج
● المعرض الدائم للكتاب ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٣٦٩٩

ISBN — ٩٧٧ — ٠١ — ٢١٣٢ — ٠

تنتمى قصص هذه المجموعة لنوع أصبح نادراً فى الكتابة الإبداعية الحديثة : النوع الذى تمتزج فيه خصائص الإبداع الباحث عن المعنى بخصائص الإبداع الساعى إلى تجسيد حالة بشرية خاصة ؛ إبداع طرح الفكر وإبداع تمثل الإحساس ؛ إبداع التحليل العقلى وإبداع التصوير الحسى فى وقت واحد . فالقضية الذهنية هى حالة حياتية فى قصص نعيم عطية ؛ والعكس صحيح ، فلا معايشة حسية لتجربة ما دون سعى ذهنى لا ستخلاص معناها ـ والفانتازيا نفسها ـ أو الحلم ـ قد تكون تجربة ذهنية ، يكتمل فيها امتزاج العملية الإبداعية المكتوبة ويكتمل فيها مدلولها . فالإبداع هنا ـ كالتخيل أو كالحلم ، إعادة خلق لما كان قد اكتمل وانتهى ؛ تماماً مثلما تستعيده الذاكرة التأملية ، أو اللاوعى الحالم فى تشكيل مختلف وتكوين خاص .

إن تجارب الوحدة ، التى قد تكون فعلية مادية أو فكرية ذهنية ، والتى تتراوح بين وحدة الهجران العاطفى ووحدة الموت الجسدى أو الروحى هى من نوع التجارب التى كان الانشغال بها أحد المعالم الرئيسية للأدب الحديث وللحساسية التى تمثله فى الفكر وفى الفن على السواء ، حيث تعطى اللغة الموضوعية والتعبير المباشر للحلم أو حتى للخيال مذاقه وطبيعة الحضور الواقعى لتجارب العالم اليومى ومعالمه .

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية ال